بين النظرية ورجل الدولة

ساطع الحصري

بين النظرية ورجل الدولة

تصميم الغلاف

عبد الله القصير

قامات في الفكر والأدب والحياة
(الندوة الشهرية الحادية عشرة)

ساطع الحصري

بين النظرية ورجل الدولة

إعداد وتوثيق:
د. إسماعيل مروة
نزيــه الخـوري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٠م

ساطع الحصري بين النظرية ورجل الدولة / إعداد إسماعيل مروة ، نزيه الخوري.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب ، ٢٠٢٠.- ١٤٤ ص ؛ ٢٥ سم. - (قامات في الفكر و الأدب والحياة).

الندوة الشهرية الحادية عشرة

١- ٩٢٣,٢ : الحصري ، ساطع م ٢- ٣٢٠,٥١ م ر وس

٣- العنوان ٤- مروة ٥- الخوري ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

مُقدِّمة

أبو القومية العربية فكراً...

للقومية، للوطن عَمِلَ، فكان عليه ما عليه، وله ما له!!!...

ساطع الحصري، القامة الفكرية والقومية، التي امتد أثرها من نهايات القرن التاسع عشر إلى ما بعد منتصف القرن العشرين، ما بين ولادة في صنعاء ووفاة في بغداد سنة ١٩٦٨ وتنقّلٍ ما بين صنعاءً وحلب والبلقانً ودمشق والقاهرة والحجاز...

ساطع الحصري رحلةٌ غنيةٌ، لذلك كان لا بدّ من دراسته بشكلٍ يليق به، ولهذا انتُدب ثلاثة من ذوي العلم والفضل بإعداد مداخلات تليق بـ ساطع الحصري...

من السياسة والعلم، من الأكاديمية وممارسة العمل الأكاديمي العلمي الصديق:

- أ. د. علي دياب - تناول المرتكزات الفكرية في فكر ساطع الحصري.
- أ. د. فارس النداف - يتناول جانب الهوية والدولة.

- د. علي إسبر - إشكالية الانتقال من العثمانية والطورانية إلى العروبة في فكر ساطع الحصري.
- د. إسماعيل مروة - ساطع الحصري رجل الدولة.

عمل ساطع الحصري من أجل القومية العربية وتوفي عام ١٩٦٨، لكن من محاسن الصدف أن الحصري عاصر بذرةً من بذار الفكر القومي، عاصر قيام الجمهورية العربية المتحدة، ودولة الوحدة بين سورية ومصر، ودُعي إلى سورية في نيسان عام ١٩٥٩ لإلقاء محاضرات...

فألقى محاضرة في دمشق عن مقوّم اللغة في الوحدة.

ومحاضرة في حلب تناول الجزء الثاني: المقوّم التاريخي للوحدة.

نعيد البهاء إلى هؤلاء المفكّرين.. فكل واحد منا يحاسب هؤلاء بظرف اليوم، وهذا ما لا يجوز، وعلينا أن ندرسه بمنظور مرحلته.

ساطع الحصري عند دراسته يجب أن أعيش مرحلته وأن أتنقل معه وأن أعيش في ظروفه.. لأتمكن من الاستفادة من تجربته وتقويمها لأنتقل إلى مرحلة أخرى، متقدمة أكثر.

يقول ساطع الحصري في أهم كتبه:

ثمّة فرق بين البلاد وبين الدولة، لم يكن لدينا شيء اسمه العروبة، وإنما يوجد بلاد عربية ، هذه البلاد مفرّقة والدولة هي الحاكمة، من الدول السابقة وحتى الدول التي حكمتنا بعد الإسلام و.. و.. إلى الاحتلال العثماني.

ويقول: «هناك قوميةٌ تتوزع في بلدانٍ عديدة وهناك دول تحوي قوميات عديدة».

ساطع الحصري (أبو خلدون) يسأله ابنه لماذا سميتني خلدون؟!، فيقول:

«في عام ١٩٣٧ سألت والدي لماذا أسميتني خلدون ؟!! ، فأخذ ورقةً من دفترٍ لي وكتب عليها التالي: اسمع يا بني إنني لم أقرر أن أتحمل أعباء الأبوّة، إلا بعدما رأيت تباشير حركة بعث الأمة العربي، وقدّرت الواجب الذي يترتب عليّ في خدمة هذه الحركة، وقد قلت عندئذٍ فليكن لي ولدٌ أسميه خلدون ليساهم في هذه الحركة بدوره، ويشاهد ثمراتها بصورةٍ فعليةٍ حتى عندما ينتقل دور العمل لابنه يكتب تاريخ انبعاث الأمة العربية بنظرةٍ تحليليةٍ فلسفية، يُحيي بها ذكرى سميّه القديم وهو (أنا)»..

لجنة الندوة تشكر وزارة الثقافة ممثلةً بالسيد الوزير لعنايته بهذه الندوات، وتخصّ بالشكر مكتبة الأسد الوطنية لما تبذله من جهود في التحضير لإنجاح هذه الندوات، والهيئة العامة السورية للكتاب، وإدارة مطابع وزارة الثقافة، لما يُبذل لتوثيق هذه الندوات.

لجنة الندوة
د. إسماعيل مروة
نزيه الخوري



المرتكزات القومية
عند ساطع الحصري

د. علي دياب

بادئ ذي بدء، لابد لنا من التعريف بهذه الشخصية العربية الفريدة، ساطع الحصري، ولد في العاصمة اليمنية صنعاء، في اليوم الخامس من شهر آب لعام تسعة وسبعين وثمنمئة وألف، إذ كان أبوه موظفاً فيها، واسمه محمد هلال الحصري، وينتمي ساطع الحصري إلى أسرة من الأشراف في حلب بسورية، ولكنه درس في المدارس التركية، وتخرج فيها، وتلقى تربية تركية في استانبول، إذ نشأ فيها ودرس، وغلب على تفكيره الصبغة التركية، ولاسيّما التي عهدها جيل «تركيا الفتاة» المتأثرة بأفكار الفلسفة الوضعية الفرنسية والقومية الأوروبية.

تدرج ساطع الحصري في وظائف تعليمية وإدارية عدة، ومن ثم تسلم مناصب مختلفة في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني حتى سقوط السلطنة العثمانية، ومن هذه المناصب كان مديراً لدار المعلمين في استانبول، كما عين

محافظاً لبعض الولايات في البلقان، ومما يستغرب عن الحصري في تلك الفترة نزعته الطورانية، فعمل مع جمعية الاتحاد والترقي، وقام بنشر مقالات عدة في مجلة (تورك أوجاني) يدعو فيها إلى الطورانية والتتريك، فكان يذيل هذه المقالات باسم: م ساطع، أي مصطفى ساطع، ومما يلفت الانتباه أيضاً انقلاب هذه الشخصية بين ليلة وضحاها، من متحمس للطورانية ولسياسة التتريك وداعٍ إليها، إلى حامل للواء القومية العربية، ويصبح رائداً من روادها، مع العلم أنه كان ممن يتقن اللغة التركية، وتعمق في الشأن التركي، إلا أنه حافظ على انتمائه العربي، وجسّد ذلك بانتسابه إلى الجمعيات السرية كجمعية العهد والاستقلال والعربية الفتاة، وعمل أيضاً صحفياً مع جمعية الاتحاد والترقي قبل انقلابهم على الدولة العثمانية، واضطهادهم للعرب، وبعد هذا الانقلاب تصدى لسياسة التتريك وإلغاء الحريات الثقافية للقوميات المنضوية تحت الدولة العثمانية والبدء بمحاربة تلك القوميات: العربية والسلافية والأرمن والكرد، إذ باشرت الحكومة الجديدة المنبثقة عن الانقلاب، منع هذه القوميات التحدث بلغاتها، مما أغضب العرب وأجّج عندهم الروح القومية، وكان يومها ساطع الحصري أحد رموزها الفكرية، ورائداً من رواد القومية العربية في تلك الفترة، وبعد انهيار الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، عاد الحصري مباشرة إلى بلده سورية، والتحق بالحكومة العربية التي ألّفها الملك فيصل في دمشق، ويصبح وزيراً للتربية الوطنية، ثم أسقط الحكم الوطني في سورية، واستشهد يوسف العظمة في معركة ميسلون سنة عشرين وتسعمئة وألف، ولاحقت سلطات الاحتلال الفرنسي بقية الوزراء والوطنيين ومنهم ساطع الحصري، وفي هذه

الفترة وعندما كان وزيراً للتربية الوطنية، أبعد الحصري بعض علماء الدين عن التدريس، وذلك بسبب مخالفتهم للقواعد العلمية الحديثة في التدريس، والاقتصار على المنهج الديني المقتبس من مدارس الكتاتيب الدينية القديمة، وكان من بين هؤلاء الشيخ أبو السعود بن ضيف الله مراد فغضب غضباً شديداً وهجا الحصري ببيتين من الشعر قال فيهما:

ساطع أظلم لما وسّد الأمر إليه

خسف الدين بجهل لعنة الله عليه

وعندما وقع البيتان بيد الحصري، أغرق بالضحك، واحتفظ بهما، وجعل يرددهما أمام أصدقائه ورواده[1]، ورافق الملك فيصل إلى العراق بعد سقوط الحكم في سورية واحتلالها من قبل الفرنسيين، وتسلم في العراق مناصب تربوية هامة، فأسس وزارة التربية العراقية وأسّس أيضاً جامعة بغداد سنة أربع وعشرين وتسعمئة وألف، وكان أول عميد لها، وكان له تأثير كبير في تكوين وعي قومي عربي في العراق[2] ومما أسند إليه إدارة المعلمين العالية في بغداد، وكان الحصري علمانياً، فحاول فصل درس الدين عن دروس اللغة العربية، التي كانت في السابق مشتركة في منهج واحد، كما عمل على استحداث مناهج علمية معاصرة في اللغة العربية، تعتمد على الطريقة التواصلية الصورية المعروفة في طرائق التدريس، فكان من أشهرها كتابه: القراءة الخلدونية للصف الأول الابتدائي، وهو كتاب خاص بتعلّم

(١) الأعظمي، وليد، أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران، مكتبة الرقيم – بغداد ٢٠٠١:٢١١.

(٢) حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة: ٣٧٢.

اللغة العربية، يتميز بالحداثة، ويتضمن أرفع طرائق التدريس الحديثة في وقته، وبقي متداولاً قرابة نصف قرن، وأفرد كتاباً للنصوص الدينية سمي بالتربية الدينية، ونتيجة ذلك وفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة وألف، احتج المعلمون في بغداد على سلوك الحصري وقدموا مذكرة للملك فيصل الأول، ثم نشروا كرّاساً بعنوان: سرّ تأخر المعارف، إلاّ أن الملك كان يلزم وزارة المعارف بأوامر ساطع الحصري، ولم يهتم بآرائهم، إلاّ أن الحصري نفي من بغداد من قبل الإنكليز، إثر ثورة رشيد عالي الكيلاني إلى حلب، فتسلل منها إلى بيروت، ومن ثم رجع إلى دمشق عام أربعة وأربعين وتسعمئة وألف، حيث كلفته الحكومة السورية المستقلة للعمل كمستشار لصياغة النظام التربوي والتعليمي في البلاد، واهتم بالفكر العربي والوحدة العربية، وبتطوير مناهج التعليم، ومن ثم توجه إلى القاهرة، حيث أصبح رئيساً لمعهد الدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية، وذلك بعد تأسيسها عام خمسة وأربعين وتسعمئة وألف، ووقتها وضع سلسلة من الأبحاث حول النظرية القومية ونشوئها، ودافع فيها عن القومية العربية واتجاهاتها متأثراً في ذلك بالفكر الفرنسي والإنكليزي عامة، وبفكر فختة الألماني خاصة، ومن ثم كرمه الرئيس جمال عبد الناصر بتعيينه مديراً لمعهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، وذلك عام ثلاثة وخمسين وتسعمئة وألف، واستطاع الحصري ومن خلال إدارته لهذا المعهد أن يصدر ستة مجلدات تحت عنوان (حوليات الثقافة العربية) كما ألف مجموعة من الكتب وتصل إلى أكثر من عشرين كتاباً كرّسها للدفاع عن القومية العربية، وردّ فيها على دعاة الإقليمية والنعرات الطائفية ومن أهم هذه الكتب:

١- حول القومية العربية ٢- آراء وأحاديث في القومية العربية ٣- آراء وأحاديث في الوطنية القومية ٤ـ دفاع عن العروبة ٥ـ يوم ميسلون ٦- دراسات في مقدمة ابن خلدون ٧- البلاد العربية والدولة العثمانية ٨- آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع ٩ـ صفحات من الماضي القريب ١٠- آراء وأحاديث في التربية والتعليم ١١- آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة ١٢ـ اتجاهات مختارة في القومية العربية ١٣- محاضرات نشوء الفكرة القومية ١٤- هوية الثقافة العربية ١٥- العروبة أولاً ١٦- العروبة بين دعاتها ومعارضيها.

هذا ويقول د. محمد كامل ضاهر:

«يحدد الحصري الأمة من حيث وجودها بالفعل، ومن حيث قيامها على أساس موضوعي وجوهري هو اللغة. فالأمة العربية هي مجموع من كانت لغتهم الأصلية اللغة العربية، لا أكثر ولا أقل، ويأتي التاريخ المشترك بعد اللغة من حيث الأهمية، لكن دوره ثانوي، لأنه يقوي الرابطة القومية ولا يخلقها، ولكي يقوم بهذه المهمة لابد من أن يستخدم عمداً من أجلها حتى لا نقع أسرى لماضينا، بل نأخذ منه ما فيه نفعنا في الحاضر والمستقبل»[1]. ومما يقوله أيضاً الأستاذ ألبرت حوراني في هذا الصدد:

---

(١) ضاهر، محمد كامل، الصراع بين التيارين الديني والعلمي في الفكر العربي الحديث والمعاصر: ٣٥٩.

«فنحن لسنا سجناء ماضينا إلا إذا أردنا ذلك، وعلى كل أمة أن تنسى جزءاً من تاريخها، ولا تتذكر منه إلا ما تجد فيه نفعاً»[1]، أما الدين فلا يدخله الحصري في صلب تكوين الأمة فيقول:

«إن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ... ولكن لا وحدة الدين ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية»[2]، وهنا يستشهد الحصري برأي جمال الدين الأفغاني، الذي يرجح الجانب اللغوي على الجانب الديني في نشوء القوميات، حيث يقول: «إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان:

وحدة اللغة ووحدة الدين، وحدة اللغة هي الأساس الذي تقوم عليه الجنسية، اللغة أشد ثباتاً وأكثر دواماً من الدين. نعرف أمماً غيّرت دينها خلال ألف عام مرتين إلى ثلاث مرات، دون أن يطرأ خلل على وحدتها اللغوية والقومية، فنستطيع أن نقول: إن تأثير سلطة اللغة في هذه الدنيا أقوى من تأثير رابطة الدين»[3]. ويظهر لنا التأثر الواضح للحصري بجمال الدين الأفغاني في تصوره للقومية العربية وعلاقتها بالدين، فيقول الأفغاني:

«إن الأمة العربية عربية بغض النظر عن أي دين أو مذهب، فالأمر لا يحتاج إلى إثبات»[4] والحصري لا ينفي تأثير الدين بالمشاعر الإنسانية، وفي

---

(١) حوراني، ألبرت ، ذكر سابقاً: ٣٧٤.

(٢) الحصري، ساطع، أبحاث مختارة في القومية العربية: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) المرجع السابق: ٣٦٣.

(٤) المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني: ٢٣٧.

خلق نوع من الوحدة في مشاعر الأفراد، تساعد في ترابط الوحدة القومية، وهنا نجد أنه عندما يكون الدين عالمياً كالمسيحية والإسلام، يجد بعض الباحثين أنه يخلق مشاعر تتعارض والمشاعر القومية، ولكن النزعات القومية في النهاية، هي التي تتغلب على الروابط الدينية. صحيح أن اللغة هي إحدى المقومات الضرورية لأي تجمع بشري، وهي أهم ملامح الدور الثقافي لكل حضارة، كما أنها الوعاء الذي يكون مقومات الأمة، ولكنني هنا لا أتفق مع الأستاذ ساطع الحصري ولا الأفغاني بالدور الأساس والمحوري الذي أعطوه لعامل اللغة، ومعهم أيضاً الأستاذ زكي الأرسوزي الذي بالغ أكثر منهما في إعطاء عامل اللغة الأهمية العظمى، كما أعطاه الدور السحري في توجيه العرب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وبتقديري هذا كان خطأً ونقطة ضعف كبيرة ونسي الأساتذة الكرام علاقة الإنسان بالطبيعة، بالإنتاج، بالتاريخ والثقافة، إذ ألحقوا الثقافة باللغة، وفيما يتعلق بالتاريخ يمكن رصد حركات الانفصال، فالأندلس انفصل في القرن الثاني الهجري سنة أربع وخمسين وسبعمئة للميلاد، ثم تبعه المغرب، فاللغات لم تصنع التاريخ القومي، بل التاريخ القومي هو الذي صنع اللغات، فالمجتمعات التي كانت تشعر بهوية واحدة، كانت تخلق لغة واحدة خاصة بها، وذلك لتفصل بينها وبين غيرها من الأمم، فعلى سبيل المثال: ينظر الكثيرون إلى أن اللغة الإيطالية، كانت البذرة التي نمت منها القومية الإيطالية، كانت من خلق رجل واحد وهو: دانته إليغياري، لم يستخدمها في كتابة الكوميديا الإلهية، بل استخدم لغة الشعب (Vulgar) وغاريبا لدي من أبطال الوحدة الإيطالية، ولد في نيس بفرنسا، وتكلّم لغتها، وكانت لغته الإيطالية سيئة أو ضعيفة، فاللغة الإيطالية كانت

محدودة الاستخدام، وتقتصر على أقلية للسكان، ولكنها فرضت حضورها وهيمنتَها لاحقاً لأسباب سياسية وأخلاقية.

وكذلك اللغة الألمانية حيث أصبحت ثلاث لغات: الفلمنكية والهولندية والأفريكانز في جنوبي إفريقيا، فاللغة الإنكليزية كانت لغة لندن، والفرنسية لغة باريس، والدانماركية لغة كوبنهاغن، فمعظم اللغات المنتشرة حالياً، لم تكن من خلق الشعوب والأمم التي تتكلمها، على سبيل المثال: البرازيل تتكلم اللغة البرتغالية مع الفارق الكبير بين البرازيل والبرتغال من حيث المساحة وعدد السكان، وفي تركيا استبدلوا الأبجدية العربية بأبجدية لاتينية، إذن فالإرادة السياسية وكما تبيّن التجارب التاريخية هي التي كانت تخلق هذه اللغة أو تلك. فالفكر التبشيري الغيبي، الذي عرفه فكرنا القومي في البدايات ولا يزال، هو منفصل عن واقعه الموضوعي وثوابته وهو أسهل أنواع الفكر، إذ صاحبه يستطيع قول ما يريد، وكل ما يحتاجه هو: حذلقة لسانية، سلاسة لغة، عبارات منمقة وخيال جامح، فيؤثر في مستمعيه دون دراسة الجانب التاريخي والاجتماعي وتحولاتها، إذن فاللغة هي عامل الأمة بامتياز تتكون في التاريخ، ولا تتحول إلى لغة قومية إلا في التاريخ، وبالتالي فعلينا دراسة الواقع العربي دراسة علمية بعيدة عن العاطفة، دراسة لطبقاته وآثار التبعية، وعلاقة التجزئة بالتخلف، وهذا يؤدي إلى فهمنا القوانين الخاصة لتجزئتنا، فاللغة هي الرافعة، والشرط الأول لنهضة الأمة، هو التعبئة الشاملة، والأمة لا تغدو هي الأمة ما لم يتقدم الانتماء إليها على أي انتماء آخر، وفي عصر الأمة نغدو مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات،

وخارج إطار عصر الأمة القومية نكون شتاتاً من الرعايا، تتراوح الانتماءات بين الملّة والطائفة والعشائرية والقبلية والمنطقة والقرية وغيرها.

ونعود إلى الحصري فنجد أنه متأثر بنظرية ابن خلدون، الذي يؤكد أن الدين لا يمكنه بحد ذاته إنشاء جماعة سياسية، بل يقتصر دوره على تعزيز مشاعر الجماعة، التي تكون قد نشأت عبر تضامن طبيعي ناتج عن صلات طبيعية عصبية وغيرها، وبالتالي فإن وجود الأمة أسبق منطقياً من وجود الجماعات الدينية، فإذا كان نشوء القومية العربية تاريخياً مرتبطاً بالإسلام، فإن العرب لا يمكنهم أن يشكّلوا أمة إسلامية، بل أمة عربية، ولما كانت الأمة تحدد بلغتها، فإنها تشمل جميع الناطقين بهذه اللغة وكذلك المدى الجغرافي الذي تنتشر فيه، وتأسيساً على ذلك فإن مصر وشمال إفريقيا هي جزء من الأمة العربية، وأن دعاة الإقليمية الذين يقولون بأمم وقوميات متميزة داخل الأقاليم الناطقة بالضاد، إنما هو قول باطل، كما أن الذين يدعون أن ولاء العرب السياسي يجب أن يكون للأمة الإسلامية إنما هو أيضاً كلام باطل، وبناء على ذلك دخل ساطع الحصري في نقاش حاد مع القوميين المصريين، وبمن فيهم طه حسين ولطفي السيد ومع السوريين القوميين أنطون سعادة وجماعته، ومع الإسلام السياسي ممثلاً بالإخوان المسلمين وزعيمهم سيد قطب، وتعددت مناظرات ساطع الحصري الفكرية وردوده في الدفاع عن القومية العربية، ورأى أن تجاهل مصر الاستجابة لقضية القومية العربية قبل ثورة تموز عام اثنين وخمسين وتسعمئة وألف يعود لأمرين:

الأول: حالة العزلة التي خلقها الاحتلال البريطاني.

والثاني: ارتباط بعض النخب في مصر بروابط تتنافى مع الروح القومية، وحاول هؤلاء صياغة ثقافة مصرية، تستند إلى التراث الفرعوني، واعترض الحصري على حجج د.طه حسين التي أوردها في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر، طابعها وطباعها وأنها في الوقت نفسه تحتفظ بهوية خاصة فرعونية الجوهر، فاستنكر الحصري فكرة فرعونية مصر، معلّلاً ذلك في أنه إذا كانت المشاعر الفرعونية تتأصل في وجدان المصريين، فإنه يجب أن يستعيدوا لغة الفراعنة وحضارتهم، وأن مصر لا يمكن أن تنبذ العربية الحية تحت دعوى الانتماء إلى حضارة ميتة، أما فيما يتعلق بدعوى الانتماء إلى الإنكليز، فقد دحض ذلك بتأكيده أن ما يشد وبربط مصر بالدول العربية أقوى مما يربطها بدول البحر الأبيض المتوسط. ولم تقل مواجهة الحصري لدعاة الإقليمية في إطار سورية الكبرى وخاصة أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي عن مواجهته لدعاة الفرعونية، فانطون سعادة كان ينفي الرابط القومي بين سورية وغيرها من الأقطار العربية، التي يصفها بالبداوة على عكس الأقطار السورية في الهلال الخصيب، مركزاً على الرباط الجغرافي للهلال الخصيب لتميزه عن الأقطار العربية الأخرى، وبالتالي فالحصري رفض الرباط الجغرافي فقط كأساس للقومية، كما يرفض أيضاً التسليم بوجود مميزات للسوريين في الهلال الخصيب، تختلف عن تلك التي يتسم بها الشعب العربي الناطق بالضاد في بقية الأقطار، ويرفض الحصري أيضاً ما يعرف بالإقليم السوري (سورية الكبرى) بمعناه الإداري الحديث حتى عام ثلاثة وأربعين وتسعمئة وألف، والشيء نفسه فيما يتعلق بالحركة الفرعونية أو القبطية التي نادت في ثلاثينيات وأربعينيات القرن المنصرم بعدم عروبة مصر وأن مصر قبطية فرعونية، وبالتالي فكان ردّه كتابة

سلسلة من المقالات وعقد العديد من الندوات أوضح فيها: أن اللغة الفرعونية هي السريانية وهي من اللغات السامية الشقيقة والقريبة جداً من اللغة العربية، وأن القبط طائفة دينية، وليست قومية منفصلة بذاتها، واستند في كتاباته على مكونات اللغة القبطية التي تتكون من ثلاثة وثلاثين حرفاً، منها سبعة وعشرون حرفاً يونانياً، مقتبساً من اللغة الإغريقية القديمة بعد احتلال الإمبراطورية الرومانية لمصر في عهد كليوباترا، كما توقف ساطع الحصري ملياً في ردوده على طه حسين وذلك بعد اطلاعه على حديث نشرته مجلة المكشوف البيروتية، جرى بين طه حسين وبين جماعة من الشبان العرب على ظهر باخرة، ويتضمن هذا الحوار، ذهاب طه حسين إلى المطالبة بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية، والتعاون الثقافي والاقتصادي والعسكري فيما بينها، باستثناء الوحدة السياسية سواء أكانت هذه الوحدة بشكل إمبراطورية جامعة، أم على غرار اتحاد مشابه للاتحاد الأميركي أو السويسري، ويعلل ذلك في: «إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين، وإنها ستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى، ويتابع طه حسين مخاطباً الشباب العربي: إن المصري مصريّ قبل كل شيء، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف»[1] فيخاطب الأستاذ الحصري طه حسين قائلاً: «وجدت نفسي تجاه ما ذكرتم، مدفوعاً إلى الإسراع في مناقشة هذه الآراء، لكي لا أترك مجالاً لزعزعة إيمان بعض الشبان، بتأثير سلطتكم الأدبية السامية، وأسلوب بيانكم الأخاذ»... فاسمحوا لي أن أسألكم: هل الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية؟ أنا لا أتردد في

---

(١) الحصري، ساطع، أبحاث مختارة في القومية العربية: ١٦٧.

الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، لأنني أعتقد بأن دعوة المصريين إلى الاتحاد مع سائر الأقطار العربية، لا تتضمن بوجه من الوجوه حثهم على التنازل عن «المصرية».

إن دعاة الوحدة العربية لم يطلبوا من المصريين ضمناً ولا صراحة أن يتنازلوا عن مصريتهم، بل إنهم يطلبون إليهم أن يضيفوا إلى شعورهم المصري الخاص، شعوراً عربياً عاماً، وأن يعملوا للعروبة بجانب ما يعملونه للمصرية. فهل لديكم ما يبرهن على أن ذلك من نوع «طلب المحال»؟ وهل لديكم ما يدل على أن العروبة والمصرية ضدان لا يجتمعان، وعنصران متعاكسان لا يمتزجان؟... فهل تسمحون لي أن أستوضحكم ما تقصدونه من كلمة «الفرعونية» هل تقصدون منها الأخذ بحضارة الفراعنة؟ أم الاعتزاز بثقافة الفراعنة؟ أم تقصدون منها، بعث اللغة الفرعونية والآداب الفرعونية، والديانة الفرعونية، والسياسة الفرعونية؟... ومن جهة أخرى أجد في مناداتكم «بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية، وتسهيل التبادل الثقافي منها» دليلاً قاطعاً على أنكم لم تقصدوا منها الثقافة الفرعونية أو اللغة الفرعونية أيضاً. فماذا تقصدون منها إذن؟ السياسة؟ هل تقصدون أن «السياسة الفرعونية» تتطلب «الاكتفاء بحدود مصر الحالية» فترفض «التوسع» بكل أنواعه حتى ولو كان عن طريق قبول انضمام الأقطار العربية؟... إنكم أشرتم في حديثكم إلى الآثار الباقية من عهد الفراعنة بشكل يستوقف الأنظار... ويبدو من هذه التأويلات أنكم تودون أن تخلقوا للفكرة العربية خصوماً من الآثار القديمة، وأن تضعوا في سبيل تيار

هـذه الفكـرة سـدوداً مـن الرمـوس والأطـلال. فهـل فـاتكم أن التعـارض والتصادم لا يحدثان إلاّ بين الأشياء التي تـسير عـلى مـستوى واحـد، في عـالم واحد، وأن الفكرة العربية التي تعمل في القرن العـشرين للأجيـال القادمـة، لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثاً من ماضٍ سحيق، يرجع إلى أكثر من خمسة آلاف من السنين؟ إن مصر قد تباعـدت عـن ديانـة الفراعنـة، دون أن تخرب أبا الهول، وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تهدم الأهـرام، وجميـع آثار الفراعنة التي زينت بها متـاحف مـصر ومتـاحف العـالم، لم تولـد نزوعـاً للعودة إلى الديانة التي أوجدت تلك المآثر الخالدة، ولا حركة ترمي إلى بعث اللغـة التـي رافقتهـا خـلال قـرون طويلـة، فهـل مـن موجـب لطلـب هـدم الأهرام، وتناسي الآثار لأجل تحقيق الوحدة العربية. إن الأهـرام ـ مـع جميـع الآثار الفرعونية – لم تمنع مصر من الاتحاد مع سـائر الأقطـار العربيـة، اتحـاداً تاماً في ساحة اللغة، فهل يمكن أن تحـول دون اتحادهـا مـع تلـك الأقطـار في ساحة السياسة أيضاً؟» واستمر رائد القومية العربية في تفنيد آراء طه حسين كلها، وبدحض الحجة بالحجة، ولاسيما ما جاء به أي طه حسين حول قضية الأصل والدم، وفي أن الأكثرية الساحقة من المصريين، لا تمت بصلة إلى الدم العربي، وإنما تتصل مباشرة بالمـصريين القـدماء، ويعـود بـدوره ليسأله: هـل علمـتم بوجـود أمـة عـلى الأرض تحـدرت مـن أصـل واحـد تمامـاً؟ وهـل تـستطيعون أن تـذكروا لي أمـة واحـدة تـرتبط بـروابط الـدم فعـلاً وحقيقـة، ويمضي معه إلى آخر الشوط، ويذكره في أن الأبحاث العلمية تدل على أنه لا يوجد على وجه هذه البسيطة أمة خالـصة الـدم، حتـى الأمـة الفرنـسية التـي

سبقت جميع الأمم الأوروبية في طريق الوحدة والاستقرار، لا تدعي بوحدة الأصل والدم، ويعترف علماؤها في أن الأجناس التي دخلت في تركيبها تعد بالعشرات. كما تصدى ساطع الحصري لدعاة الإقليمية ومعارضي الوحدة العربية، والذين تبنوا مقولة أن تعدد الدول العربية من الأمور الطبيعية وأن بقاء العالم العربي على ما هو عليه من التجزئة والانقسام، يوافق مصالح الشعوب وأن أي اتحاد بين هذه الدول يولد محاذير وأضراراً عظيمة، وهذا ما كانت تنشره جريدة العمل لسان حال حزب الكتائب اللبنانية سنة ١٩٥١ فكان رد الفيلسوف الحصري على هؤلاء فقال: «هل يوجد مثلاً بين القطر السوري والقطر العراقي – من الاختلاف ما يحتم على كل واحد منهما أن يكون دولة خاصة به؟» إني لا أتردد في الإجابة عن هذا السؤال بالنفي البات: لقد قدر لي أن أعيش وأن أعمل في كل واحد من هذين القطرين حقبة طويلة من الزمن، وأن أطلع على أحوالها الطبيعية والبشرية اطلاعاً واسعاً، وقد تجولت خلال مدة تقرب من ثلث القرن في أنحاء كل منهما جميعاً، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، من أكبر المدن إلى أصغر القرى، من أخصب الأراضي إلى أفقر البوادي، وقد تنقلت مراراً في مختلف أنحاء القطرين المذكورين، ليس تنقل السائح العابر، بل تنقل الباحث العامل، فأستطيع أن أؤكد ـ استناداً إلى ما لاحظته خلال هذه المدة الطويلة – أنني لم أجد بين أحوال القطرين اختلافاً يفوق الاختلافات التي تشاهد عادة بين مختلف المناطق، في كثير من الدول الأوروبية نفسها. لا شك في أن بغداد تختلف عن دمشق في كثير من الأمور،

ولكن هل يوجد في العالم مدينة لا تختلف عن غيرها في غير قليل من الأمور؟ ثم، إذا كان ثمة اختلاف بين بغداد وبين دمشق، أفلا يوجد اختلاف مماثل لذلك، بل وأشد من ذلك بين بغداد وبين المنتفك في العراق من ناحية، وبين دمشق وبين دير الزور في سورية من ناحية أخرى؟ ومما لا شك فيه أبداً أن الموصل مثلاً كانت ـ قبل ثلاثين عاماً ـ أكثر اتصالاً بحلب منها ببغداد وأشد شبهاً بها.

وإني لا أزال أذكر الانطباع الذي حصل في نفسي عند زيارتي الأولى إلى الديوانية في العراق، قبل نحو ثلاثين عاماً: لقد توهمت أني لم أغادر حوران!

كما أني لا أزال أذكر الانطباع الذي حصل في نفسي، عندما زرت دير الزور قبل سبعة أعوام: لقد ظننت أني عدت إلى العراق!

ولذلك كله أقول جازماً: بأن الفروق التي تذكر بين القطرين العراقي والسوري، ليست من الفروق الجوهرية، وهي لا تفوق كثيراً الفروق التي تشاهد بين مختلف الإيالات الفرنسية مثلاً ولا أغالي إذا قلت إنها تقل كثيراً عن الفروق القائمة بين إيالتي كالابريا، ولومبارديا في إيطاليا.... إن كثيراً من الفروق التي تشاهد الآن بين أحوال سورية وأحوال العراق، إنما نتجت عن اختلاف نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والثقافة، التي قامت في كل منهما، منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، وهي فروق سطحية وعرضية، تتضاءل وتتلاشى بسرعة أمام التماثل الأساسي الذي لا يزال قائماً بينهما فلا يمكن والحالة هذه، تعليل وتفسير نشوء هذه الدول العربية المختلفة بغير

الرجوع إلى مطامع الدول الأوروبية، واتفاقاتها السياسية ومحاولاتها الاستعمارية[1].

إن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح أكبر - بل تصل إلى حد البداهة - في أمر نشوء المملكة الأردنية... إنها كانت «متصرفية الكرك» في عهد السلطنة العثمانية، ثم صارت «متصرفية السلط» في عهد الدولة العربية الأولى في سورية... أؤكد كل التأكيد أنه ما كان يخطر ببال أحد منا، ولا ببال أحد من ساسة الدنيا كلها في ذلك التاريخ أن هذه المتصرفية ستصبح إمارة، ثم مملكة، في يوم من الأيام[2] ويتحدى فيلسوف العربية معارضي فكرة الاتحاد أن يذكروا له مثالاً واحداً يدل على استقلال هذه المساحة الجغرافية بكيان سياسي خاص، كان موضوعاً لطلب، أو مشروع أو اقتراح أو ما شابه قبل عام ١٩٢٠. وهذا كله كان نتيجة اتفاقية سايكس - بيكو ومؤتمر فرساي، حيث تقاسمت فيه القوتان العظميان يومها إرث السلطنة العثمانية المنهارة. ومما يذكره الحصري أيضاً عن معارضي العروبة ما ذكره بكتاب له في أنه وقع وهو يقلب صفحات جريدة يومية بيروتية عنوان مقالة يتوج ثلاثة أعمدة: «حصاد الموسم في المدارس» وهذه المقالة تصف حفلة مدرسية أقيمت في الجبل بمناسبة منح الجوائز للمتفوقين، وتوزيع الشهادات على المتخرجين ومن جملة ما جاء في كلمة الطالب وهو من مريدي الزعيم أنطون سعادة: «فيا زملاء الدراسة، ويا رفقاء السلاح، إن الأمة قد وضعت على

(١) المرجع نفسه: ١٦٧ - ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه: ٤٣٤ - ٤٣٥.

أكتافكم عبئاً ثقيلاً، هو عبء تحرير أجزاء الوطن الضائعة، عبء إنقاذ فلسطين، وقبرص وسيناء وكيليكية والاسكندرون»[1]. ويتساءل الحصري في أن أجزاء الوطن الضائعة في نظر صاحب الخطاب... فإنقاذ فلسطين إنما يعني تحريرها من حكم الصهاينة وإنقاذ قبرص يعني تخليصها من حكم الإنكليزي، وإنقاذ الاسكندرون وكيليكية يعني تحريرها من الأتراك، وأما إنقاذ سيناء، فلا يمكن أن يعني إلا تخليصها من حكم المصريين!

إذن، فإن مصر التي تحكم سيناء أجنبية في نظر صاحب الخطاب قبل الإنكليز والأتراك والصهاينة، ويعد ذلك ساطع الحصري ضرباً من الضلال الفكري، وأنه من جملة تعاليم الحزب السوري القومي الذي أسسه أنطون سعادة، وهذا الحزب ينكر وجود «قومية عربية» ويدعو الناس إلى الإيمان بقومية من نوع خاص ويمكن أن نطلق عليها قومية - إقليمية، وضعت حدودها ومعالمها مخيلة مؤسس الحزب، وقام الحصري بدراسة آراء أنطون سعادة وتعاليمه ونقدها نقداً علمياً وردّ عليها في كتاب عنوانه: «**العروبة بين دعاتها ومعارضيها**».

فرّق الحصري بين الثقافة التي عدّها قومية وبين الحضارة التي عدّها أممية، وتحدث عما يسمّى بالعبودية الثقافية والسيطرة الثقافية، التي تمارسها بلدان الغرب الإمبريالية ويراها تشكّل خطراً على الثقافة العربية بل والوجود القومي العربي، كما حذّر من مخلفات السيطرة الاستعمارية الغربية التي تروج للنزاعات الإقليمية، ويؤكد على شعبية الثقافة، ويعدّها الأساس

(١) الحصري، ساطع، دفاع عن العروبة: ١٥.

في تكوين نفوس الشعب، ولا يقصد بذلك التقليد بل البعث والنهوض، وهذا ما دفعه إلى رسم سياسة لغوية صحيحة في معرفة النضال من أجل الوحدة العربية، لأنه وكما أسلفنا يقدم عامل اللغة على بقية عوالم الرابطة القومية. كما دافع عن قومية الأدب أمام المنادين بإقليمية الأدب، ويذكر أن الأدب العربي لم يكن أدباً واحداً، وإنما هو مجموعة آداب، نشأت في بيئات مختلفة، ويستشهد على ذلك بالمتنبي الذي ولد في الكوفة، ونشأ في البادية، وعاش في بغداد وحلب وسافر إلى القاهرة، ومع ذلك حافظ على أصالته وصفته الموحدة، وكذلك الأدب حافظ على صفته الموحَّدة والموحِّدة، حتى في أسوأ عصور ضعف وتفكك الدول العربية، ويميز بين التنوع والأصالة، وبين إقليمية الأدب.

فلا يوجد أدب مصري أو عراقي أو شامي أو تونسي وغيره، وإنما يوجد أدباء مصريون وعراقيون وشاميون... وكلهم يعملون من أجل تطوير الأدب، وتبيان ما فيه من ميزات أصيلة. ويجد الحصري أن التنوير أفضل أداة لتكوين ثقافة عربية معاصرة، وعلى ألاّ يقتصر هذا التنوير على التعليم المدرسي والجامعي، بل يتعداه إلى تأثير المفكرين والأيديولوجيين من حملة الأفكار القومية والوطنية النّيرة، وهذا ما جعله لأن يعد وحدة الثقافة مقدمة هامة وأساسية للوحدة السياسية.

عارض الحصري الذين عدوا أن الأمة هي الدولة، والدولة هي الأمة ولا فرق بينهما، وقال: «إن هذا القول يصح إلى حد ما، بالنسبة إلى «الدول القومية» التي تتألف من أمة واحدة، وتجمع شمل شعوب تلك الأمة بأجمعها، ولكن لا يصح أبداً بالنسبة إلى الدول التي قد تكون مؤلفة من أمم

عديدة، أو تكون قائمة على جزء من الأمة دون سائر أجزائها»[1] والمثال على ذلك بولونيا التي كانت حتى منتصف القرن الثامن عشر دولة مستقلة، ومن ثم بدأت تضعف إلى أن انقرضت، وجاراتها الثلاث، استولت عليها وتقاسمت أراضيها فيما بينها وهي: بروسيا وروسيا والنمسا، وأصبح كل قسم من أقسام الدولة البولونية من رعايا الدولة المستولية عليها، وبهذا الشكل، انتهت الدولة البولونية، ولكن لم تنته الأمة البولونية، وظلت أمة حية واعية، ولم يندمج البولونيون في حكم الدول الثلاث، وبقوا متمسكين بقوميتهم، شاعرين بها، وظلوا يناضلون إلى أن استعادوا استقلالهم وبنوا دولتهم، والشيء نفسه بالنسبة إلى الأمة الألمانية، وهي حالياً أشد تماسكاً، وأقوى اتحاداً من جميع الأمم الأوروبية، مع أنها كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمئة دولة في أوائل القرن التاسع عشر.

يختلف الحصري عن غيره من المفكرين، في أنه كان مثالاً للباحث والمجرّب والدارس الملتزم، يحاضر ويناقش، ويطور آراءه، ولم يغلق نوافذ ثقافته وتفكيره على ثقافة دون أخرى، فأفاد كثيراً من نظريات تكوين الأمم ومنها النظرية الألمانية والفرنسية، فكانت عقيدته القومية واضحة وضوح الشمس في كل أعماله التعليمية ودراساته الفكرية، وعندما يتناول الباحثون الغربيون الجذور الفلسفية لأفكار الحصري، يعدونها نقلاً مباشراً لما كان رائجاً في أوروبا في أثناء القرن التاسع عشر، ويتجاهلون عمداً عداءه للاستعمار والإمبريالية.

---

(١) الحصري، ساطع، أبحاث مختارة في القومية العربية: ٦٤ ـ ٦٥.

أما فيما يتعلق بوجهة نظر ساطع الحصري حول علاقة القومية العربية بالدين، فهو يتبين دعوته من منطلق عروبي، استناداً إلى اللغة والتاريخ التي تعد الدين هو أحد مكونات القومية العربية، وليس المكون الوحيد، حيث أشيع في عصر الحصري أن فكرة القومية العربية، نشأت عند المفكرين المسيحيين قبل المسلمين، وأن المسيحيين ساهموا في بناء الحضارة العربية قبل الإسلام وبعده، فهذه الفكرة رفضها ساطع الحصري الذي كان ينظر إلى أن فكرة القومية العربية، ظهرت أساساً بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى بزعامة الشريف الحسين بن علي أمير الحجاز، وخاصة بعد تداعيات انقلاب حزب الاتحاد والترقي في استانبول، الذي كان يؤمن بتفوق العنصر التركي على بقية العناصر البشرية، وتبنّي سياسية التتريك ضد القوميات المؤتلفة ضمن الدولة العثمانية، ومنها العرب فاضطهدهم، ومنع استخدام العربية، وبالتالي إعدام الأحرار العرب في ساحات دمشق وبيروت وبغداد، وهذا ما أجّج الشعور القومي عند العرب ودعوتهم للاستقلال عن الأتراك. كما تصدّى ساطع الحصري لجماعة الإخوان المسلمين الذين يقولون في أن فكرة القومية العربية تتعارض مع الإسلام، وهي ليست إلا عودة إلى عصبية، سبق للإسلام وأن نهى عنها، فحكم على هذا القول في أنه محض مغالطة، وأن الإخوان المسلمين، حاولوا أن يمزجوا بين التعصب القبلي، التي قال النبي العربي محمد ﷺ فيها: «دعوها فإنها منتنة» وبين النزعة القومية، وهي حركة معاصرة سياسية وطنية، تهدف إلى تحرير العرب من المستعمرين كافة، إن كانوا أتراكاً أم فرنسيين أم إنكليز وغيرهم، ومن ثم توحيدهم كما كانوا موحدين، منذ تأسيس الدولة العربية الإسلامية الراشدية في مدينة يثرب،

هذه الدولة التي لم تنفصل إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وواجه الذين نادوا بالوحدة الإسلامية بدلاً من الوحدة العربية، فرأى الحصري أنه برغم أن فكرة الوحدة الإسلامية تعد أوسع وأشمل من مفهوم الوحدة العربية، إلا أنه ليس بالإمكان، الدعوة إلى الوحدة الإسلامية قبل الدعوة إلى الوحدة العربية، ويؤكد أن من يعارض الوحدة العربية، فما هو إلا معارض للوحدة الإسلامية، وهنا يوضح ساطع الحصري في أنّ الحركة الإسلامية، أوجدت تحولاً خطيراً في أحوال العرب، وهذه حقيقة، لا يستطيع إلاّ أن يسلّم بها أيّ باحث إن كان عربياً أم غير عربي، «ولكن الحركة الإسلامية لم تبقَ مرتبطة بالقومية العربية ارتباطاً تاماً، لأن بعض الجماعات استعربت، دون أن تعتنق الديانة الإسلامية، ويعكس ذلك، فإن بعض الجماعات اعتنقت الديانة الإسلامية، دون أن تستعرب، وتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة من ناحية، وأمم إسلامية غير عربية من ناحية أخرى، وهذه أيضاً حقيقة لا يمكن أن يختلف عليها اثنان، ويمكننا القول: إن تاريخ العرب دخل في طور جديد هام بظهور الإسلام، وأن المعلومات التاريخية والآثارية التي تجمعت لدى الباحثين، لا تترك أي مجال للشك في ذلك... وإذا أمعنا النظر في اللغة العربية نفسها، اضطررنا إلى التسليم بأنها لم تكن لغة شعب بدائي، محروم من الحياة الفكرية، لأننا نجد في القصائد الجاهلية، وفي القرآن الكريم، الذي خاطب معاصري الرسالة المحمدية، وأثّر فيهم أعمق التأثير، طائفة كبيرة من التقدم، مما لا يمكن أن يتم، دون أن يكون وراء ذلك حياة فكرية وتأملية شديدة، ولهذا السبب نستطيع أن نؤكد أن إنكار وجود حضارة وحياة فكرية عند العرب قبل الإسلام لا يتفق مع الحقائق العلمية

بوجه من الوجوه» ويوضح الحصري في أن العرب قبل الإسلام كانوا قليلين، ومواطنهم كانت محدودة نسبياً، فإن البلاد التي تستحق النعت بالعربية كانت منحصرة في الجزيرة العربية، وبحافات بعض البلدان المجاورة لها، وأما توسيع حدود العروبة إلى سائر أنحاء الوطن العربي، فقد تم بفضل الفتوحات العربية، وبالتالي فيرى الحصري أن معظم أجزاء الشام والعراق، وجميع أنحاء إفريقيا الشمالية من مصر والسودان والمغرب، كانت غير عربية، واستعربت بعد الإسلام.

هذا وقد تعرض الحصري لردود كثيرة حول وجهة نظره في فصل الدين، وأنه لم يعده من مقومات القومية، فرد على هؤلاء، في أن تناول بعض الأمور وبشكل مستقل عن الدين، فلا يعني إنكار الدين، وإنما يعني النظر إلى تلك الأمور في أنها لا تدخل في نطاق الأمور الدينية، ويؤكد في أن نعت القومية باللادينية والقوميين باللادينيين، لا يتفق مع حقائق التاريخ بوجه من الوجوه، وهذه التهم كانت توجه من الإسلام السياسي، أي من حركة الإخوان المسلمين في محاربتهم للفكر القومي والدعوة إلى الوحدة العربية، فكانوا يستهدفون الرموز القومية ويتهمونهم بالعلمانية التي تعني في مفهومهم الإلحاد وضد الدين.

وفي الختام أود القول: إن ساطع الحصري، الذي يعد رائداً سباقاً في ميدان القومية العربية، لم يأبه لكل هذه الخصومات، التي كانت تحاول النيل منه، ولاسيما من الناحية الدينية، منطلقين من أن الشارع ديني، وبالتالي سيسقط مثل هذه القامات عندما يوجه إليهم الاتهام في وقوفهم ضد الدين، إلاّ أن ريادة هذا المفكر العربي الأصيل، أسقطت رهاناتهم وشقت آراؤه

طريقها إلى عقول المثقفين العرب، وشكّل تياراً قومياً قوياً في أنحاء وطننا العربي، لا تزال أصداؤه باقية إلى يومنا هذا. وهكذا عاش ساطع الحصري تسعاً وثمانين سنة فعاد إلى العراق عام خمسة وستين وتسعمئة وألف وتوفي في الأسبوع الأخير من كانون الأول عام ثمانية وستين وتسعمئة وألف في بغداد ودفن في مقبرة الخيزران في الأعظمية، وكرمته جامعة الدول العربية بعد وفاته، وخصصت أسبوعاً لدراسة فكره ورؤاه تقديراً لدوره القومي والتربوي.



مراجع البحث

١- الحصري، ساطع: أبحاث مختارة في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة - لبنان - بيروت: ١٩٨٥.

- دفاع عن العروبة، دفاع عن العروبة، لبنان، بيروت: ١٩٨٥.

٢- حوراني، ألبرت:

- الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، بيروت، د. ت.

٣- الأعظمي، وليد:

- أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران - مكتبة الرقيم، بغداد: ٢٠٠١.

٤- ضاهر، محمد كامل، الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار البيروني للطباعة والنشر، بيروت: ١٩٩٣.

٥- المخزومي، محمود باشا، خاطرات جمال الدين الأفغاني، المطبعة العلمية ليوسف، صادر، بيروت: ١٩٣١.



محطات في فكر ساطع الحصري

د. فارس النداف

القسم الأول

لـو سـئل المفكـر سـاطعُ الحـصري عـن جنـسيته فـماذا يجـب ؟ سـاطع الحصري في الحياة العربية ظاهرة فريدة فقد ولد في صنعاء ١٨٨٠ من أبـوين سوريين، وانتقـل إلى طـرابلس الغـرب[1]، وعـاش في سـورية وتـولّى منـصب وزير المعارف في آذار ١٩٢٠ وعاش في مصر، وانتقل إلى العراق وعـاش في لبنان، وعمل في لجامعة العربية في مـصر، فـأي جنسيه سيحمل لقـد ناضـل وكتب وعمل من أجل أن تنطبق الجنـسية (الوطنيـة) عـلى القوميـة في وطنـه العربي، لتصبح مثل بقية دول العالم.

مَن هو الحـصري – يصف الأستاذ أنطون مقـدسي الحـصري في مقالـة في مجلـة المعرفـة العـدد ١٩٥ أيـار ١٩٧٨[2] يقـول: سـاطع الحـصري ، ذهـن

---

(١) البندك مازن، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار القدس للطباعة والنشر، الجزء الأول ١٩٧٤، صفحة ٥.

(٢) المعرفة، العدد ١٩٥، أيار ١٩٧٨.

علمـي- تحلـيلي، اسـتقرائي، وتجريبـي، جيـد التوثيـق عـرف العلـوم والرياضـيات والإحـصاء وعلـم الـنفس والتربيـة وفـن الإدارة ، ودرس القومية والتاريخ القديم وعلى الخصوص التاريخ المعاصر.

لقد كان من أكبر مفكري العرب القوميين، فهـو مفكـر قـومي ولـيس فيلسوفاً ولا سياسياً، فكان في كيانه نفور غريزي من الفلسفة، يعتقد باعتقاد حازم أنها موطن المعميات لكأن معادلته هي التالية ،كلُ ما هو مبهم فلسفة، وكل فلسفة كلام غامض، وكلَّ ما لا يفهمه هو لا يمكن لأي إنسان أخر أن يفهمـه، لهـذا حـذف أول مـا حـذف مـن برنـامج الثانويـات في سـورية مـادة الفلسفة، واستعاض عنها بمعلومـات عامـة مـن علـم الـنفس والمنطـق، أمـا الأخلاق، فأصبحت في برامجه تربية وطنية كذلك الحصري لم يكـن سياسـيّاً، فهو لم يخض غمار الحياة السياسية ومعاركهـا اليوميـة، وتفاصـيلها الـصغيرة، ولكنـه في الوقـت نفـسه كـان في قلـب الحيـاة الـسياسية مـن حيـث الأسـس والاتجاه العام والمبادئ الأولية.

فقد نظر إلى القضية العربية على أنها قضية أمـة تناضـل للخـلاص مـن الاستعمار الأجنبي وتسعى إلى تحقيق وحدتها، وهـذا يحتـاج إلى أجيـال تعـي بعمق قضية الوحدة والوطنية. وقد رأى أن وضع أسس تربوية سـليمة هـي نقطة البدء لخلق أجيال واعية قادرة عـلى تحقيـق أمـاني أمتهـا. ولكنـه لم يكـن يتردد لحظة في خوض المعركة الـسياسية مـن أخمـص قدمـه إلى قمـة رأسـه إذا دعت الحاجـة إلى ذلـك، كـما حـدث فعـلا في معركـة «الموصـل» أيـام أرادت تركيا أن تسلخها عن العراق وتضمها إليها[1].

---

(١) البندك مازن ، مختارات ساطع الحصري، دار القدس، ١٩٧٤، صفحة ٧.

لقد احتفظ«أبو خلدون» بدور المفكر القومي والمربّـي القـومي بعيـداً عن المعترك السياسي وذلك لم يمنع عنه أذى الحياة السياسية التي امتدت إليه طوال فترة وجوده في عراق نوري السعيد. وقد انتبـه الخـبراء الإنكليـز ودار المندوب السامي البريطاني إلى خطورة الدور الذي يقول به ساطع الحـصري على المدى الطويل، فحاربوه من اللحظة الأولى التي قدم فيها العـراق إلى أن استطاعوا تتويج «نضالهم» ضده بأمر إخراجه من العراق عقب فشل الثورة سنة ١٩٤١[1]، ثورة رشيد عالي الكيلاني.

وقد يتساءل البعض: ترى هل كان من الأفضل أن يعمل مفكر قومي بقدر كفاءة ساطع الحصري في العمل السياسي اليومي؟ و الدور الذي خطه لنفسه كمفكر ومربي قومي هل عـاد عـلى التربيـة والتعلـيم في العـراق وعـلى الفكر العربي عموماً بمزيد من الفائدة؟ مـن الـصعوبة بمكـان الإجابـة عـن هذا السؤال. فقد واجهت «الحصريَّ» مجموعـة مـن المشاكل التـي لا يمكـن التقليل منها.

كـما أن الاستعداد الشخـصي، والقـدرة عـلى تحمُّـل المعـارك الـسياسية الصغيرة والكبيرة التي يفرضها العمل السياسي ،يجب أخذها بالاعتبـار. إذا كانت هناك فائدة مؤكدة قد عادت من انصراف ساطع الحصري على شؤون التربية والفكر، وهو مـا يمكـن تـسميته بالانـصراف عـلى الأسـس والجـذور والأصول. فإنّ ابتعاده أيضاً عن معترك الحياة السياسة قـد فـوّت كثـيراً عـلى السياسية نفسها، وعليه هو شخصياً، لأن هناك جوانب تفـصيلية وأساسـية في الحيـاة العربيـة لا يمكـن التعـرّف إليهـا إلا مـن خـلال العمـل الـسياسي

(١) المرجع نفسه، صفحة ٧.

اليومي، بكل ما يمكن أن يحمله مثل هذا العمل من مضاعفات بالنسبة لمثقف ومفكر. وطبعاً فان ابتعاده عن المعترك السياسي القومي لا يخفض مقدار ذرة من الجهد العظيم الذي بذله ساطع الحصري في خدمة الفكرة العربية[1].

لقد مر ساطع الحصري بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة الشباب وتخرجه من المدرسة الملكية الشاهانية بتفوق، في الرياضات والعلوم الطبيعية، وعمل مدرّساً في أقاصي الدولة العثمانية في أوروبا، واستطاع من هناك أن يكون على صلةٍ بنتاج الفكر الغربي، ثم انتقل للعمل في السلك الإداري، فعيّن قائمقام في ولاية قصوة. على حدود النمسا، واتصل بجمعية «الاتحاد والترقي» التي قامت بالثورة لإصلاح الدولة العثمانية ثم عاد إلى اسطنبول. وأنشأ مجلة تربوية ونشر كثيراً في التربية والعلوم وأبرز أعماله في هذه المرحلة قيامه بتأسيس دار المعلمين في عاصمة الدولة على أسس علميةٍ وعصريةٍ[2]، وفي خلال هذا كله كان دائم الزيارة للعواصم الأوروبية، وعلى صلة شخصية بكثير من العلماء الغربيين في فرنسا وسويسرا، وفي هذه المرحلة اطلع على النظريات القومية، وهو الذي أحصى كل ما كتب في الأمة قبله وفي أيامه.

(١) بندك مازن، مختارات ساطع الحصري مرجع سابق، صفحة ٨.

(٢) مرجع سابق، صفحة ٦.

١- النظرية الألمانية التي تقوم على أساس اللغة، هذه النظرية قامت بدور أساسي في انهيار الدولة العثمانية، فانفصلت كلُ الشعوب التي لا تتكلم التركية عن الإمبراطورية العثمانية.

٢- القومية على أساس وحدة الإرادة، مشيئة العيش المشترك أول من دعا إليها أرنست رينان في محاضراته الشهيرة في السوربون سنة ١٨٨٢ بعنوان «ما هي القومية»؟.

تقول النظرية إن الأساس في تكوين الأمة هو رغبة ومشيئة الشعوب في العيش المشترك بجانب التراث والتاريخ[1].

٣- القومية أساس وحدة الحياة الاقتصادية.

تقف الماركسية على رأس هذا التوجه، ترى هذه النظرية أن المصالح الاقتصادية والتماسك الاقتصادي تكون أقوى الأسس في وحدة الأمة.

٤- النزعة القومية. وقد استخدم جويسبي ماتزيني السياسي القومي الإيطالي هذا المصطلح للمرة الأولى، نحو عام ١٨٣٥. ومنذ تنبه المؤرخون والسياسيون لدلالته المهمة في الثقافة الغربية، فقد احتل مفهوم القومية مكانة بارزة في الفكر السياسي والتاريخي والاجتماعي والثقافي، ولكن تناقص دلالته واختلاف الدور التاريخي والاجتماعي والفكري للنزعة القومية وللفكرة القومية

(٣) المجد ، منبر الثقافة القومية العربية، شباط ٢٠١٧.

نفسها هو ما يثير الاهتمام غالباً. قال ماتزيني: إن القومية هي انتماء جماعة بشرية واحدة لوطن واحد شريطة أن يجمعها تاريخ مشترك ولغة واحدة في أرض هذا الوطن.

وأضاف العلماء الألمان وعلى رأسهم هيردر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحدة الثقافة النابعة من وحدة اللغة[1]. وفي بعض الحالات ارتبطت النزعة القومية بمحاربة النزعة العالمية (الكوزموبوليتانية)* أو بمحاولة الاستفادة منها كما استلهم الحصري من كتاب المفكر فيخته ١٧٦٢-١٨١٤ ومجموعة خطب إلى الأمة الألمانية ١٨٠٧-١٨٠٨ الكثير من أفكاره.

المرحلة الثانية:

فيها ترك تركيا وانتقل إلى البلاد العربية، أرض آبائه وأجداده التي أعطاها زهرة شبابه وثمرة فكره. فقد لازم الفيصل الأول الهاشمي وأسهم معه في بناء أول دولة انبثقت عن ثورة الشريف حسين، وشغل وزيراً للمعارف في آذار١٩٢٠ثم اضطر للخروج في السنة نفسها، حيث إنه كان شاهداً على أفاعيل الاستعمار التي أسقطت هذه الدولة فحفظ الوقائع عن ظهر قلب ترافقه الذكرى الأليمة حياته كلها، ثم دعمها بالوثائق ليضع «يوم ميسلون» الطبعة الأولى ١٩٤٥ أجمل مؤلفاته وأكثرها وقعاً في النفس، وهي التي دفعته إلى مساءلة التاريخ عن عوامل الوحدة القومية ومقوماتها[2].

---

(١) المجد، منبر الثقافة القومية العربية، مرجع سابق، ٢٠١٧.

(٢) القيم علي، الأستاذ أنطون مقدسي، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٦، صفحة ٢٠٦.

إن تجربة الاستقلال السوري الأول وما رافقها من أحداث حاسمة هي النواة الأولى لفكره القومي وإذا كان قد كرس حياته بعدها للتربية فلكي يكون المواطن الموحد دعامة الدولة القومية المنشودة[١].

والأهم مما تقدم بكلمة هو أن الدولة الهاشمية في سورية نشأت في جو من المساومات حول الشرق وهذه المساومات وما نجم عنها من تسويات هي التي رسمت حدوداً للمنطقة حيث لم تكن ثمة حدود وخلقت دولاً حيث لم يكن أي نظام سياسي خاص وابتدعت هويات إقليمية حيث لم يكن سوى الهوية العربية، وقد بدأت تستيقظ تحت تأثير التعسف العثماني وإرادة القوى لدى أنصار العرق الطوراني، بدأت مضطربة مترددة في مناخ يسوده الحذر من الأجنبي والقلق على مستقبل الشعب.

هذه التجربة الأولى التي ما تزال وستبقى لزمن جاثمة على صدورنا هي التي حرضت الحصري على التفكير ،من جهة في أسبابها ومن جهة أخرى في مقومات الوحدة القومية وفي السبل المؤدية إليها.

وباختصار فإن ذكرى (يوم ميسلون) الأليمة هي الخلفية اللامرئية لنضال الحصري على الصعيدين النظري والعملي[٢].

في هذه المرحلة انتقل الحصري إلى العراق والتحق بالملك فيصل الأول الهاشمي وأثر السياسة الثقافية على سياسة السياسيين فكان أميناً عاماً لوزارة المعارف ومن ثم مديراً لمعاهد تربوية مختلفة وبقي في العراق إلى سنة ١٩٤١ فتستدعيه سورية لإنقاذها من الاستعمار الثقافي.

---

(١) المرجع نفسه، ٢٠٧.

(٢) مرجع سابق، صفحة ٢٠٨.

المرحلة الثالثة:

وهي عودته إلى سورية بعد استقلالها، فعمل مستشاراً فنياً لوزارة المعارف، حيث وضع أسس تعريب نظام التربية، فالحصري أيضاً لخص وبسّط فكتب للمدارس الابتدائية (دروس الأشياء) ولدور المعلمين الابتدائية (تعليم الألف باء وطرق التدريس) وللمدارس الإعدادية (النبات والحيوان) فلم يترك علماً معروفاً في أيامه إلا واكبّ عليه فحفظه وكتب فيه ، كما أنه ألف على الخصوص في الشؤون القومية والسياسية للأحزاب والسياسيين ولجمهور المثقفين[1]. وجل كتبه في الشطر الأخير من حياته مقالات جمعت على عجل بدون أي تعديل أو تبديل، ولو جمعت مؤلفاته الكاملة لشملت عشرات المجلدات. فمن العسير على الدارس أن يجد الفكرة الناظمة لتأليفه. أضف أنه كان يرد عن نفسه تهمة الانتساب إلى أية فلسفة* والرؤى الشاملة أصلاً لا عرضاً فلسفية. لا بل كان يصعب عليه أن ينصاع للفكر الفلسفي فيفهمه.

ومع انتقاله إلى مصر سنة ١٩٤٧ دَرّسَ في معهد التربية العالي بالمنيرة وألقى محاضرات في نشوء الفكرة القومية وعين أول مدير للمعهد وأستاذاً لمادة القومية العربية فيه فتولى تأسيسه وتكوين مكتبته وأصدر سلسلة

---

(١) مرجع سابق، الأستاذ أنطون مقدسي، صفحة ٢١٦.

* يقول الحصري: «لست من الذين يتلذذون بالهيام في سماء الفلسفات» كتاب «العروبة بين دعاتها ومعارضيها» الصفحة ٣٤، من الطبعة الثالثة، ١٩٥٧، نشر دار العلم للملايين، في بيروت.

مطبوعاته، وواصل العمل في المعهد حتى سنة ١٩٥٨ فاستقال واعتزل جميع الأعمال الرسمية[١].

هذه الحياة العريضة صحبها إنتاج خصب في شؤون التربية والتعليم وتوضيح الأسس العلمية لفكرة الوحدة العربية بعد أن كانت مجرد فكرة رومانطيقية عائمة غير محددة. ولهذا، يمكن اعتبار ساطع الحصري علامة مميزة في تاريخ الفكر الوحدوي كصاحب إحدى أول المحاولات العلمية لترسيخ مفهوم الوحدة وإرسائها على مفاهيم علمية بحته، كما أن حياته كمواطن عربي غطت نشاطاته أكبر من بلد عربي، صنعاء- دمشق- طرابلس الغرب - بغداد القاهرة، تجعل منه نموذجاً للإنسان العربي الذي لا وطن له إلا الوطن العربي كله من المحيط إلى الخليج[٢].



(١) مختارات ساطع الحصري، الجزء الأول، صفحة ٦.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٧.

القسم الثاني

لم تكن مفاهيم العروبة والأمة الواحدة والوحدة العربية وما يلزم عنها كالعودة إلى التاريخ والتراث والاستناد إلى اللغة كقاسم مشترك بين العرب، أو كعامل توحيد بينهم، وأيضاً ضرورة انتهاج سياسة عربية موحدة. لم تكن الأمور بالجديدة عندما تناولها الحصري بالدراسة. فقد ظهر بعضها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر (اللغة العربية مثلاً) واستخدمت أساساً لمقاومة الاستبداد العثماني. ومن ثم للوقوف في وجه التريك (أوائل القرن العشرين) وظهر البعض الأخر بين الحربين واستخدامه سلاحاً لمقاومة مشروعات التجزئة التي كان يضعها الاستعمار لتثوير الجماهير في سبيل الاستقلال والتحرر[1]. أن مشروع الفكر القومي لم يكن بالأمر السهل.

فبالإضافة إلى صعوباته الذاتية الكثيرة، كانت الأفكار التي هبطت علينا من العالم المتقدم حضارياً بكل وقائعها وتعارضاتها كثيرة، وهي حصيلة أربعة قرون ونيف من النضال الاجتماعي والثوري والعمل الفكري المستمر ولما لم يكن بوسعنا تمثلها كلها بحيث تتلاءم مع بيئتنا وحاجات هذه البيئة أخذنا- ولا نزال لحد بعيد نأخذ- أما بتقليدها، في محاكاة غالباً ما كانت حرفية وأما بإيجاد مقابل مفتعل لها في تراثنا أضف أن الأجنبي، وقد شعر أن

---

(١) د.علي القيم، الأستاذ أنطون المقدسي، منشورات وزارة الثقافة، مرجع سابق، صفحة ٢٣٦.

مواقعه بدأت لأول مرة تتزعزع جدياً، أخذ يغـذي النزعـات الانفـصالية أو الإقليمية الكامنة بعدد وفير في تاريخنا وأول ما صنعه هو أنـه وضـع موضـع التشكيك فالرفض مفهوم الأمة العربية الواحدة، وهو، يومها واليوم، محور الـصراعات في القـضية العربيـة. وهـذا مـا حـدا بـساطع الحـصري إلى القيـام بمحاولة لا سابقة لها في تاريخنا إلا وهي إرساء مفهوم الأمة العربية الواحدة على أسس عقلية موضوعية تعصم العرب، حكامـاً وجمـاهير ومفكـرين مـن الـشطط أو الانحـراف عـن طـرحهم. وتبلـور أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة ويعيدها التصورات الكبرى للأمـة في خمسة اتجاهـات لكـل منهـا مـسوغاته وهي التالية:

الأول هـو الخـط القـومي العـربي، وتمتـد الأمـة عنـده مكانـاً بامتـداد الجماعـات الناطقـة باللـسان المبـين أو مـن الخلـيج إلى المحـيط، وزمانـاً مـن الجاهلية التي اعتمدت في أغلب الحالات أساساً لبحـث مفهـوم الأمـة وإلى أيامنا ولمستقبل لا ينتهي. أما ما قبل الجاهلية فهو بمثابة ما قبل التاريخ.

وتضيق الحدود مع الخط الثاني بحيث تشتمل الهـلال الخـصيب وبـلاد الشام. أما في التاريخ فيحاول الحـزب الـسوري القـومي الاجتماعـي – وهـو الخط الثاني- تحري الكتاب والمفكرين سواء وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية أم باللغة السريانية، باللغة الإغريقية أم باللغة اللاتينية، ليضمهم إلى الحظيرة السورية فيحدد المعالم الكبرى لوجودها إذ كلهم والـذين كتبـوا مـن أجلهـم ينتمون إلى بيئة جغرافية واحدة وإلى التاريخ المـسطر عـلى أرض هـذه البيئـة: وكلاهما (البيئة والتاريخ) جعل الـسوريين عـلى مـا هـم عليـه اليـوم وفي كـل زمان ومكان. ويقابل هذا الاتجاه المشرقي في المغـرب العـربي أنـصار وحـدة

المغرب الكبير وجلهم من المفكرين والكتاب، ممن عارضوا الاستعمار والعروبة بمفهوم بقي نظرياً خالصاً[1].

وتتقلص الحدود مرة أخرى مع الخط الثالث الفينيقي والفرعوني بحيث تشتمل ما نسميه اليوم أقطاراً. ويتعين الزمن هنا بتاريخ الوحدة الحضارية – الأم المعنية إذ هي التي حددت بمغامراتها السياسية والاجتماعية والثقافية ما يلي، فهي المقياس. وألاحظ أن مفهوم الأمة وأيّاً كانت تقدمية القادة، يتضمن دوماً نزعة محافظة سرعان ما تصبح رجعية عندما تتملك الشوفينية القلوب. وهذا ما يحدث غالباً في الأزمات السياسية والمنعطفات التاريخية. وتمتد الحدود مع الخط الرابع على ثلاث أو أربع قارات إذ تضم المسلمين كافة على ما بينهم من تباين في تفسير القرآن الكريم. فالوحدة ليست وحدة التاريخ – اللغة ولا وحدة الأرض- التاريخ، والهوية ليست هوية الوحدة الحضارية – الأم - بل هوية أو وحدة العقيدة والعمل من أجل نشر هذه العقيدة ويربط الخط الخامس الأمة من حيث المبدأ بظاهرة البرجوازية فالقومية حصيلة سياسية اقتصادية معينة يضاف إليها عندنا، وربما لدى كافة الأمم المتأخرة صناعياً، الاتفاقات على الحدود التي أقرها المجتمع الدولي. ولسوف تزول يوماً مهما امتد الزمان ليحل محلها مجتمع إنساني قوامه العمل المبدع وهو متضامن في المصير. وهذا هو الاتجاه الماركسي[2].

هذه الاتجاهات هي التي اصطرعت في ساح المشرق العربي منذ بعيد الحرب العالمية الثانية وإلى أواسط الخمسينيات. ويبلغ الصراع ذروته، صراع

---

(١) المرجع السابق نفسه، صفحة ٢٣٧.

(١) مرجع سابق، صفحة ٢٣٩.

الوجود مع اللاوجود، بعد الحرب العالمية الثانية في مناخ الحرية. والوسائل والأسلحة شتى، فثمة الاجتماعات الحزبية وحلبة المجالس التشريعية والصحف والنشرات وحملات التوعية والنقاش في المقاهي والخطب في الساحات العامة والمعابد أيام الأعياد القومية والدينية، وأيضاً المدارس ومنابر الجامعات والأسواق التجارية فثمة الإضراب والتظاهر، وفي الريف تحريض الفلاحين على التمرد والوقوف في وجه الانحراف، وإذ أفتت الجماهير للعروبة في أثناء العدوان الثلاثي مع وحدة ١٩٥٨ بين مصر وسورية وإذا أخذت ثورات المغرب وفي طليعتها الثورة الجزائرية تزرع في المغرب بذور أفكار المشرق، كان على الأحزاب الأخرى أن تتعايش مع مفهوم الأمة العربية الواحدة فتدرجه في برامجها بشكل أو بآخر مسندة إلى تسويات كثيرة[1] لا مجال لذكرها هنا.

هذا هو الجو المحموم والخصب في الوقت ذاته بالأفكار هو الذي سعى بالحصري إلى السيطرة عليه أولاً بالقلم وبالكلام، ومن ثم بوسائل أخرى متعددة منها، بالنسبة إلى الحصري الإدراة عندما كان يدعى للعمل فيها، وقد تربى جيلٌ من المفكرين والسياسيين لا يزال مستمراً حتى الآن، مما يدل على أن التواصل والحوار معهما لما ينته، إذ يصبح مفهوم الأمة العربية الواحدة الذي هو من منطلقات الحصري، والذي عرفه تعريفاً علمياً، جامعاً، إشكالياً أكثر من ذي قبل وعلى الصعيد النظري والعملي وهذا يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان هناك حقاً تعريف علمي للأمة وهذا موضوع القسم الثالث.

* * *

---

(١) مرجع سابق، صفحة ٢٤١.

القسم الثالث

مفهوم الأمة عند ساطع الحصري

الأمة ليست اقتصاديتها ولا عقيدتها أو عقائدها الدينية ولا الرقعة الجغرافية التي تعيش عليها، بل هي لغتها وتاريخها.

يقول الحصري في كتابه (ما هي القومية)؟.

«إن أسّ الأسس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ، لأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة... وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى».

ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية. كما أن الرقعة الجغرافية أيضاً لا يمكن أن تعتبر بين المقومات الأساسية لأنها، على ما يضيف، متبدلة، كما يعلمنا التاريخ وقد تنقل الأمة من رقعة إلى أخرى وقد تضم الرقعة الواحدة أمماً مختلفة، ويقول:

«وإذا أردنا أن نعين عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكون روح الأمة وحياتها، التاريخ يكون ذاكرة الأمة وشعورها»[1]. ولا يمكن لعربي يعيش لحد ما مشاكل بلاده، أن ينكر على الحصري قوة حجته،

---

(١) الحصري، ماهي القومية؟ منشور حزيران، ١٩٥٩، صفحة ٢٥٢.

إذ ماذا بقي للعرب كضامن لوحدتهم سوى التراث الذي هو ذاكرتهم الجماعية وهذا اللسان الذي طالما أنهم يتقيدون بمعجمه وإعرابه وأسلوبه في التعبير، يمكنهم أن يتفاهموا وينادوا بوحدة تقطعها القيادات السياسية كل يوم إرباً،إرباً إلا أن المشكلة، ويجيب عنها بكلام تقريري قاطع، لا تقتصر على ما أقول، إذ إنه يسائل لا عن الأمة العربية وحسب بل عن (ما هي القومية) وعن ماهية الأمة بما هي كذلك.

والحصري لا يميز بين القومية والأمة كما يفعل البعض بل يعتبر الكلمتين مترادفتين. يقول: «إن الوطنية هي حب الوطن، الشعور بارتباط باطني نحوه، والقومية هي حب الأمة، والشعور بارتباط باطني نحوها والأمة حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة[1]. فهو يرى أن مفهوم الوطنية لا يختلف في الحقيقة - عن مفهوم القومية كل هذا الاختلاف. كما أن حب الوطن يتضمن، بطبيعته، حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن، كما أن حب الأمة يتضمن- في الوقت نفسه- حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة.

ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية من مفهوم القومية تقارباً كبيراً غير أننا إذا أردنا أن نحيط علماً بماهية هذين المفهومين إحاطة تامة يجب علينا أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث، هو مفهوم الدولة...فالدولة هيئة سياسية يعرفها علماء الحقوق والاجتماع بقولهم «جماعة من البشر، يعيشون في أرض معينة مشتركة مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة. يظهر من هذا التعريف المجمل أن مفهوم الدولة يرتبط بمفهوم الوطن من جهة

---

(١) بندك مازن، أبحاث مختارة في القومية العربية، الجزء الأول، دار القدس، صفحة ٢٨.

وبمفهوم الأمة من جهة أخرى، فيكون بذلك بمثابة خط واصل بين هذين المفهومين. ولكن هذا الارتباط لا يكون على نمط واحد في كل الدول والأمم وفي جميع أدوار التاريخ، بل يكون أشكالاً متنوعة، فيختلف بين أمة وأمة وبين دور ودور، أو يمكن أن نلخص أهم هذ الأشكال كما يلي:

(أ) إن الأمة قد تؤلف دولة واحدة مستقلة، لها علم خاص وحكومة خاصة وجيش خاص فالأرض التي تسود عليها تلك الدولة تكون وطناً للأمة بأجمعها، فيشترك جميع أفراد الأمة وجيع تابعي الدولة في حب ذلك الوطن وتبجيله وخدمته في هذه الحالة، تنطبق الوطنية على القومية تمام الانطباق، ولا تختلف مطالبها عن مطالب القومية اختلافاً فعلياً، فيكون الوطن «مجموع الأراضي التي تعيش عليها الأمة، وتدير سياستها الدولة» والوطنية تماثل القومية تمام المماثلة، ولا تخالفها أو تعارضها بوجه من الوجوه.

(ب) غير أن الأمة قد تؤلف دولاً عديدة، كل منها مستقلة بنفسها. ففي هذه الحالة توجد دولة من هذه الدول وطنية خاصة بها، وتسعى إلى تقوية هذه الوطنية الخاصة بكل قواها، بينما القومية تتجاوز حدود هذه الدول الوطنية المفرّقة وتسعى إلى ربطها جميعها برباط معنوي عام. فلا ترتاح القومية - في هذه الحالة - إلى الوطنيات الراهنة تمام الارتياح، بل تتنوع إلى إنشاء دولة عامة تجمع وتوحد تلك الدول المتعددة بشكل من الأشكال. وتعمل بذلك على توليد «وطنية جديدة عامة» تسمو فوق جميع الوطنيات الراهنة الخاصة. فنستطيع أن نقول إن النزعة القومية في مثل هذه الحالات – تولد فكرة «وطن معنوي مثالي» أوسع وأعظم وأغلى من الأوطان الراهنة المذكورة، فتصبُ

النفوس إلى تحقيق هذا «الوطن المرقوب والمرغوب» وتندفع وراء إخراجه من عالم الفكر والتمني إلى عالم الحقيقة والواقع. ومن البديهي أن القومية - في هذه الحالة- لا تنطبق على الوطنية تمام الانطباق، بل تختلف عنها اختلافاً بيناً، لأنها تتطلب تقديم مصالح الأمة العامة على مصالح الأوطان الخاصة، وتثير مطالب الوطن الموحد المرقوب إلى جانب مطالب الأوطان الراهنة.

(ج) وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها، وتابعة لدولة أجنبية عنها. وفي هذه الحالة، تفرض الدولة الحاكمة على جميع أفراد الأمم الخاضعة لها برباط هذه الوطنية وأن يخدمها بدافع هذه الوطنية، أما القومية فتعارض ذلك أشد المعارضة[1]، وتولد في نفوس الأفراد نزوعاً إلى الاستقلال عن الدولة المذكورة، وتجعلهم يصبون إلى الانفصال عن الأمة الحاكمة ويسعون وراء تكوين دولة خاصة بهم. فيحدث من جراء ذلك نزاع وخصام بين الوطنية التي تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التي يشعر بها أفراد الأمة المحكومة. فتكون مرامي القومية حينئذ أضيق نطاقاً من أهداف الوطنية. فإن الوطنية التي تغذيها الدولة تتطلب من أفراد الأمة الارتباط بجميع أراضي الدولة، بينما القومية تحمل هؤلاء على الاهتمام بالقسم الخاص بهم دون غيره. إنها تجعلهم يتوقون إلى الانفصال عن الدولة المذكورة - وعن الأمم التي تؤلفها- وينزعون إلى الاستقلال بوطن خاص أصغر من الوطن العام، في ظل دولة خاصة أصغر من الدولة القائمة

(١) المرجع السابق نفسه، أبحاث مختارة في القومية العربية، الجزء الأول، صفحة ٢٩.

فنستطيع أن نقول: إن القومية في هذه الحالة ترمي إلى تكوين وطنية جديدة خاصة،أضيق نطاقاً من الوطنية الراهنة.

(د) ولكن الأمة قد تكون محرومة من الاستقلال- وفي الوقت نفسه- مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها. من الطبيعي أن، كل دولة من هذه الدول الحاكمة - في مثل هذه الأحوال- تفرض على جزء الأمة الخاضع لها وطنيتها هي، وتعمل على ربط أفرادها برباط هذه الوطنية، ولكن روح القومية في تلك الأمة المجزأة تعارض ذلك معارضة شديدة، وتحمل جميع أفراد الأمة في جميع الأقسام المذكورة على مقاومة الحالة الراهنة. وذلك بالاستقلال عن جميع الدول الحاكمة من جهة وبالاتحاد فيما بينها من جهة أخرى، لتكوين دولة قومية جديدة، تجمع أقسام الأمة المتجزئة تحت لواء واحد، على أرض وطن قومي واحد[1].

هذه هي الأشكال السياسية الأساسية التي تحدد علاقة الأمة بالدولة والوطن، وتعين علاقة القومية بالوطنية.

نتبين من ذلك كله: أن القومية تنطبق على الوطنية تارة وتختلف عنها تارة أخرى، وتأثيرها ينضم إلى تأثير الوطنية أحياناً، ويخالف ذلك التأثير أحياناً أخرى، ولكننا إذا تركنا هذه الفروق جانباً وألقينا نظرة إجمالية على سير الوقائع التاريخية استطعنا أن نقول: إن القومية أصبحت من أهم العوامل التي تؤثر في تطور الدول وتكوّن الأوطان منذ أوائل القرن التاسع عشر.

---

(١) المرجع سابق، أبحاث مختارة في القومية العربية، الجزء الأول، صفحة ٣٠.

ويعود الحصري إلى أهمية اللغة في تكوين القومية، فاللغة تكوّن رَوح الأمة وحياتها، والتاريخ يكون ذاكرة الأمة وشعورها. وفي موضوع القومية العربية والديانة الإسلامية، يشدد الحصري على هذه الحقيقة المعروفة، وهي أن القرآن الكريم هو الذي صان لغتنا إذ حال بينها وبين غزو العاميات، وهو بالتالي الذي حفظ للأمة العربية وحدتها.

بيد أنه ينسى في الوقت ذاته، أن مفردات اللغة هي أيضاً تنمو وتتبدل وتتطور إذ اعتباراً من الدلالة الأم لكل منها يمكن أن تضاف إليها أو تسقط منها دلالات أخرى تبعاً للظروف الذي تستخدم فيه فالكلمةُ الواحدة لا تعني الشيء ذاته دائماً وأبداً مثال ذلك: كلمة أمة فقد كانت تشير في السابق إلى الوحدة الإسلامية أما اليوم فتشير إلى وحدةٍ أخرى، قد تكونُ سياسية أو اقتصادية وهي في الواقع لسانية[1].

إن الحصري يستبعد من مكونات الأمة أو ما يسميه «أس الأسس» الدين والدولة والحياة الاقتصادية وأيضاً «الرس* أو العرق.

وينسى أن الأمة اختلطت على التوالي مع كل هذا، ففي بلاد الإغريق اتحدت الأمة لحد بعيد مع المدينة الدولة، وكذلك في إيطاليا منذ النهضة وحتى وحدة هذا البلد القومية، في العصور الوسطى، وكانت الأمة والدين شيئاً واحداً في مرحلتنا الراهنة، مرحلة الإنتاج والاستهلاك، فالأمة بمعنى ما مصالحها الاقتصادية والسياسية، فالعملية التوحيدية تبدأ بتوحيد هذه المصالح لتنتقل بعدها إلى توحيد قاعدتها التي هي القوى المنتجة وعلائقها

---

(١) القيم علي، الأستاذ أنطون مقدسي، مرجع سابق، صفحة ٢٢٣ وما يلي.

* رس جمعها «رسوس» مع أن الكلمة العربية «عرق» جمعها عروق تؤدي المعنى.

«النظام الاشتراكي» أو التنسيق ضمن حدود الإمكان، بين هذه القوى «النظام الرأسمالي»[1].

وإذ تتعارض مصالحُ الدول المتجاورة يسعون إلى دمجها في وحدة عليا اقتصادية- سياسية كالكوميكون* أو السوق الأوربية المشتركة، وعندها ترتد الوحدة القومية في السياسة إلى المرتبة الثانية، وبوسعنا نحن العرب وحدنا، أن نكون ذلك، وبالمقابل فإن العائق المباشر اليوم أمام وحدتنا هو هذه الواقعة الصارخة وهي أن كل قطر عربي ينطوي منذ أن يستقل، على ثروته المحلية مدافعاً عنها دفاع المستميت وضارباً عرض الحائط بالثروة الحقيقية التي هي وجودُنا صفاً واحداً في مواجهة تحديات الاستعمار والصهيونية والعولمة، أما العائق غير المباشر هو العقلية القبلية الضاربة جذورها في التاريخ والتي لا تزال قائمة بيننا رغم التحديث.

الخاتمة:

إن دراسة الفكر القومي من حيث مفهوم الأمة لدى أهم المفكرين العرب القومين في التاريخ المعاصر، يهدف إلى الوصول إلى درجة يمكن أن نستجيب لها اليوم نحن الذين أخذنا عنه بعد التبدل الجذري في القوى المتصارعة على ساحة العروبة، ومن جهة أخرى سبب إمكان قيام نظرة موحدة وحديثة للفكر القومي الذي تشتت بعده وهو فكر يجب أن يمهد لوحدة دوماً مفقودة ودوماً منشودة، ولقد أن الأوان للفكر القومي أن

---

(١) المرجع السابق نفسه، الأستاذ أنطون مقدسي، صفحة ٢٠٩.

* الكوميكون: منظمة للتعاون والتبادل الاقتصادي أنشأها الاتحاد السوفيتي ١٩٤٩ بين دول المعسكر الاشتراكي.

يطرح السؤال الذي لم يجرؤ أحد منا على طرحه حتى الآن ألا وهو، هل الوحدة العربية سراب أم حقيقة شعار كما يقولون أم إمكان مفتوح أمامنا وقابل للتحقيق وهو بين حدين الفكر والقوى التي يعالجه السياسي وهو أيضاً بين الوحدة والتجزئة؟!.

إن أهم العوامل التي عملت على تأخرنا في «ميدان الوعي القومي» هي الأوضاع السياسية التي خلقتها المطامع الاستعمارية في البلاد العربية، والنزعات الإقليمية التي تولدت عن تلك الأوضاع، ولكننا نعتقد أن مجرد معرفة الحقائق، مع الاطلاع على الأسباب والمسببات، تولد في النفوس إيماناً راسخاً بأن العرب أمة واحدة، على الرغم من تعدد دولها، وبأنه لايمكن لهذه الأمة أن تنال المكانة التي تستحقها، وحتى ولا أن تحافظ على كيانها في هذا العالم المليء بالعواصف طالما بقيت على ما هي عليه من التفرق والتبلبل. يقول الحصري إننا سنسعى إلى تقوية فكرة «القومية العربية» ولكننا سنفعل ذلك مستند ين إلى الحقائق العلمية على الدوام في جميع دراستنا من قانونية واقتصادية وتاريخية وأدبية بدراسات ومباحث تحوم حول«القوميات» بوجه عام «القومية العربية» بوجه خاص.

يرجع الحصري الوجود العربي برمته إلى اللسان، أداة التواصل وبالتالي الوحدة لقد استبعد الحصري الآمال والآلام المشتركة/ ووحدة الإرادة ومشيئة العيش المشترك والتي دعا إليها إرنست رينان في محاضرته الشهيرة في السوربون سنة ١٨٨٢ بعنوان ما هي الأمة؟ كذلك استبعد الحصري قيام القومية على أساس وحدة الحياة الاقتصادية والتي تدعو إليها الماركسية، وردها إلى المرتبة الأخيرة في قيام القومية، لقد تأثّر الحصري

بالنظرية الألمانية وتأثر بكتابات المفكرين الألمان فيخته وهاردر – والإيطالي ماتزيني الزعيم والسياسي القومي.

يقول الحصري «إن الدول يجب أن تتأسس على أساس القوميات فتكون كل أمة دولة قائمة بذاتها، وتستقل الأمة إذ كانت خاضعة لحكم أمة أخرى وتتحد الأمة إذا كانت منقسمة إلى دول عديدة.

إن النزعات القطرية تسيطر على نفوس الكثير من مختلف الأقطار العربية. غير أننا نستطيع أن نجزم بأن هذه النزعات أيضاً محكوم عليها بالتلاشي والزوال.

لقد طرح الحصري سؤالاً– وهو كيف يمكن لهذه الأمة المنثورة أشلاء من الخليج إلى المحيط أن تتعرف على ذاتها، وتستعيد النواة الأم التي انبثقت منها دولتها الأولى يوم الفتوحات العربية.



المصادر والمراجع

١- الحصري ساطع، يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث، صادر، بيروت ١٩٤٥.

٢- الحصري ساطع، صفحات من الماضي القريب، بيروت ١٩٤٨.

٣- الحصري ساطع، العروبة بين دعاتها ومعارضيها، بيروت ١٩٥٢.

٤- الحصري ساطع، العروبة أولا، بيروت ١٩٥٥.

٥- الحصري ساطع، دفاعاً عن العروبة، بيروت ١٩٥٦.

٦- الحصري ساطع، ما هي القومية، بيروت ١٩٥٩.

٧- البندك مازن، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار القدس للطباعة والنشر الجزء الأول ١٩٧٤.

٨- البندك مازن، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار القدس للطباعة والنشر الجزء الثاني ١٩٧٤.

٩- القيم علي، الأستاذ أنطون مقدسي، منشورات وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٦.

١٠- مجلة المعرفة، صادر عن وزارة الثقافة في القطر السوري، العدد ١٩٥ أيار ١٩٧٨.

١١- المجد، منبر الثقافة القومية ١٩١٧ موقع على الانترنت.

إشكالية الانتقال
من العُثمانيّة والطورانيّة إلى العروبة
في فكر ساطع الحُصْريّ

د. علي محمد إسبر

سأحاول التركيز على شخصّيةِ ساطعِ الحُصْريّ بالمعنى المعرفيّ، إذ غيرُ ممكنٍ في رأيي فهمُ فكره القوميّ، بمعزلٍ عن فهمٍ عميقٍ لحياته الشخصيّة، لأننا بإزاء شخصيّةٍ تركيبيّةٍ إلى أقصى حدٍّ جبلتها الأحداثُ والتجاربُ والأسفارُ، فاكتسبت خبراتٍ نظريّةُ وعمليّةً كبيرةً. ولا أعني بحياته الشخصيّة هنا ما يتصلُ بخصوصيته بصفته فرداً من الناس له حياته التي لا يحقُّ لأيِّ إنسانٍ أن يُقحمَ نفسه فيها؛ لكن أعني بها ما يتعلّقُ بالمسارات والتحوّلات والانعطافات الكبرى في حياته، بصفتها عناصر جوهريّة مكوِّنة لشخصيته الثقافيّة عَمِلت على تعيين هذه الحياة ذاتها في سياقٍ تاريخيٍّ غنيٍّ وعميقِ التأثير على المستوى الحضاريّ. وبذا يمكنُ لي – باستحضاري

لحياةِ ساطعٍ الشخصيّة - الخروجُ من دائرة الشخصنةِ المبتذلة والدُّخولُ في دائرة الشخصانيّة الحقّة التي أقصدُ بها: حركيّة تحوّل ساطع الحُصْريّ من إنسانٍ عاديٍّ متماهٍ مع واقعه التاريخيّ إلى إنسانٍ مُغيِّرٍ لهذا الواقعِ عينه. ولستُ بتركيزي على شخصيته في هذا الأفق أسعى إلا إلى تِبيانِ حقيقةِ انتقالهِ من كونه إنساناً خاضعاً للحكم العثمانيّ - التركيّ ومتماهياً معه ومتكيّفاً مع منظوماته وأنساقه إلى كونه إنساناً رافضاً لهذا الحكم نفسه ومستعدّاً لمواجهته على أساس تركيز قُواه كلّها من أجل إثبات شخصيته في أُفق الشخصيّة العربيّةِ الجامعةِ التليدة التي نزعت عنها نير السلطنة العثمانيّة الطارفة، وواجهت القوميّة التركيّة كما تجلّت في ذلك الوقت في الدّعوة إلى الطورانيّة، لذلك حينما أُعنى بتبيان تأثيرِ العثمانيّة ثم الطورانيّة في شخصيّة ساطع، فإنني أُعنى بذلك لتأكيد تجاوزه ورفضه لهما بعد أن كان منخرطاً فيهما بطريقةٍ أو بأخرى بحكمِ ما تدلُّ عليه أحداثُ حياته. وعليه، أرجو ألا يُفهم من كلامي هنا سوى أنّه يهدفُ إلى توضيحِ أهميّة هذا الانقلاب الفكريّ – الذي أراه مطلوباً الآن أكثر من عصر ساطعٍ نفسه - أعني انقلابه على العثمانيّة والطورانيّة اللتين تجتمعان الآن رغم تناقضهما سابقاً في آيديولوجيا حزب العدالة والتنمية، - وأقول: رغم تناقضهما، لأنَّ السلطنة العثمانية كانت تريدُ سيطرة الأتراك على المنطقة باسم الدِّين، والطورانيّة كانت تريدُ سيطرتهم على المنطقة باسم العِرق.

هذا، ويمكن القول: إنَّ ساطعاً عاش منذ نشأته الأولى في مفارقةٍ وجدانيّة – إن صدقَ التعبير- أو في تناقضٍ داخليٍّ بين كونه عربيّاً وكونه مسلماً: فساطع العربيّ الجذور عاشَ داخل الدولة العثمانيّة بصفته مواطناً

مسلماً يدين بالولاء لـ«لخليفة العثمانيّ» بحكم أنَّ آل عثمان قد روّجوا شائعةً جرت مجرى الحقيقة آنذاك، وهي أنَّ خلافتهم هي خلافة شرعيّة للنبيّ محمّد «ص» على أساس- كما يذكر المؤرخون- أنَّ الخليفة العباسيّ المتوكّل عل الله الثالث المتوفّى عام ١٥٤٣م تنازل عن الخلافة للسلطان العثمانيّ سليم الأول المتوفّى عام ١٥٢٠م. وقد رسّخ هذه الفكرة السلطان العثماني عبد الحميد الأول المتوفّى عام ١٧٨٩م، لذلك اعتقد الكثير من العرب المسلمين وغيرهم من بقيّة القوميّات التي تدين بالإسلام أنَّ طاعةَ الخليفة واجبٌ شرعيٌّ حتى لو كان تركيّاً أو بالأحرى عثمانيّاً.

غير أنَّ هناك قناعة بدأت تتنامى ليس في نفسِ ساطعٍ وحدَهُ؛ بل في نفوس كثيرٍ من العرب في ذلك الوقت هي «...أنَّ العرب كانوا دوماً يحسّون إحساساً فريداً ويعتزون اعتزازاً خاصّاً بلغتهم، وأنه كان لهم قبل الإسلام، إحساس «عرقيّ»، أي نوع من الشعور بأنَّ هناك، وراء منازعات القبائل والعائلات، وحدة تضم جميع الناطقين بالضاد المتحدّرين من القبائل العربيّة»[1].

والحقيقة أنَّ استغلال العثمانيين للدِّين الإسلاميّ من أجل إلزام العرب المسلمين بالخضوع لهم دفعَ ساطعاً إلى أن يضعَ نظريّةً شجاعةً في فلسفة الدِّين، إذ أوضحَ بخصوص الدِّين أنّه «يساعد على خلق نوع من الوحدة في مشاعر الأفراد. لكن نوع هذا التأثير وكيفية ارتباطه بالوحدة القوميّة يختلفان من دينٍ إلى دينٍ. فالدِّين القوميّ لا يثير أيّ مشكلة قط، إذ لا شك في أنه يدعم الشعور القوميّ. لكن الأمر يتعقّد عندما يكون الدِّين

(١) حوراني، ألبرت، الفكر العربيّ في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمه إلى العربية: كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت-لبنان، ص:٣١١.

عالميّاً، كالمسيحيّة والإسلام. فمن طبيعة هذا الدِّين أن يخلق مشاعرَ عالميّةً، لا بل مشاعر لا قوميّة. إلا أنَّ هناك ما يحدّ من هذه النزعة. فالأديان لا تنتشر إلا بواسطة أداة التعبير القوميّ، أي اللغة؛ ولكلّ دين علاقة جوهريّة مع لغة معيّنة، تنشأ عن التبشير به وعن كتبه وطقوسه المقدّسة، ولا يمكنه أن ينتشر إلا بواسطة هذه اللغة، ولا ينتشر إلا إذا كان للأمة الناطقة بتلك اللغة مصلحة قوميّة في انتشاره. فيستخدم الشعور القوميّ الدِّين كوسيلة لتأكيد ذاته»[1].

ولا غرو أنّ فهم ساطع للدِّين هنا يعني أنَّ الوجودَ القوميَّ لشعبٍ من الشعوب يسبقُ على نحوٍ ضروريٍّ أي ضربٍ أو نوعٍ من ضروبِ أو أنواعِ التفكيرِ الميتافيزيقيّ أو الغيبيّ أو العَقَديِّ يمكنُ لهذا الشعب عينه امتلاكه، لذلك الوجودُ القوميُّ لشعبٍ من الشعوب أعلى منزلةٍ من أيِّ وجودٍ روحيٍّ له في ما يتعلّق بتحقيق وحدة هذا الشعب، وهذا لا يعني أيَّ انتقاصٍ من قدْر الأديان. ويستنبط ساطع من ذلك أنّه لا توجدُ أيُّ علاقةٍ تضايفٍ بين القوميّةِ والدِّين، بمعنى: أنَّ القوميّة لا تمتحُ وجودها أو لا تستخرجه من الدِّين، ولا الدِّين يتوقّفُ على قوميّةٍ من القوميّات - اللهمّ - إلا في حالة الدِّين اليهوديّ، لأنّه ليس ديناً عالميّاً، إذ إنَّ له وفقاً لمزاعم معتنقيه الواهية تعيّناً تاريخيّاً مخصوصاً في أرضٍ موعودة. والحقيقة أنَّ هذه المزاعم اليهوديّة ليست سوى هباء وقبض ريح، وكان هدفها الرئيس الاستيلاء على أرض شعب آخر ليحل يهود الشتات محله، وكانت هذه الأرض هي فلسطين.

---

(١) المرجع نفسه، ص:٣٧٤.

وعليه، ارتأى ساطع أنَّ الدِّين الإسلامي وكذلك الدِّين المسيحيّ يناقضان الدِّين اليهوديّ، فهما دينان عالميان، ولأنّهما كذلك لا يتوقّف أيُّ واحدٍ منهما على قوميّةٍ بعينها، لأنَّ قومياتٍ عدّةً تدخل فيهما.

لذلك، لا يجب في رأي ساطع أن ننظر إلى أنفسنا بصفتنا مسيحيين ومسلمين قبل أن نفهم أنفسنا بصفتنا عرباً، فالعروبةُ أولاً وآخراً هي أساس وجودنا بصفتنا شعباً، هذا هو رأيُ ساطعٍ؛ بل يقينه. وهذا لا يعني –كما سبق القول– أيّ انتقاصٍ من قيمةِ الأديان. ويضاف إلى ذلك أنَّ كون القرآن الكريم عربيّاً أدّى إلى انتشار الدّعوة إلى الإسلام باللغة العربيّة، وهذا الأمر أفضى بطريقةٍ أو بأخرى إلى سيادة العنصر العربيّ على بقيّة العناصر في البلدان التي اعتنقت شعوبها الإسلام في مرحلةٍ تاريخيّةٍ معيّنة؛ لكن أيُعقل أن يكون الدِّين الإسلاميّ الذي كان سبباً رئيساً من أسباب سيادة العرب على المستوى العالميّ في حقبة الفتوحات العربيّة الإسلاميّة السبب الرئيس أيضاً لكونهم تابعين للعثمانيين والأتراك؟!!!

إنَّ هذا الوعي بالأمور يدلّ على أنَّ الدِّين إذا كان عالميّاً، فإنَّ تجارب التاريخ تدلّ على أنّه لا يمكن أن يبقى بيدِ قوميّةٍ بعينها ويمكن أن ينتقل إلى يدِ قوميّةٍ أخرى، وهكذا انتقل الإسلام من يد العرب إلى يد العثمانيين، وصار العرب أنفسهم وهم الذين حملوا أعباء نشر الإسلام في أنحاء العالم كافةً أتباعاً لسلاطين بني عثمان بصفتهم خلفاء مزعومين للنبي العربيّ محمّد «ص»!!!

وعلى أيّ حال انتهى ساطع استناداً إلى هذا الفهم العميق لحركيّة التاريخ إلى ضرورة الفصل بين الدّين والقوميّة، إذ إنَّ القوميّة الحقيقيّة لا يمكن أن يكون عمادها الدِّين؛ بل هي تضرب بجذورها إلى أبعد من ذلك.

وقد أوضح ألبرت حوراني طريقة تفكير ساطع في هذا الاتجاه بتأكيده أنَّ آراء ساطع تنبع من أفكار ابن خلدون عن الدِّين والعصبيّة «فالدِّين لا يمكنه بحدّ ذاته أن ينشئ جماعة سياسية، بل بوسعه فقط أن يقوي الجماعة التي تكون قد نشأت عن تضامن طبيعيّ ناجم عن صلات طبيعيّة. ويستخرج الحصري بشكل أوضح ومنطق أقوى مما فعله غيره من المفكّرين، ما تنطوي عليه ضمناً هذه النظرة. وهو أنّه لما كان وجود الأمة يسبق منطقيّاً وجود الجماعة الدينيّة، فليس من علاقة جوهريّة بين الأمة وبين دين معيّن من الأديان»[1].

وقد سبق التأكيد على أنَّ تجربة ساطعٍ الشخصيّة كانت ذات دورٍ محوريٍّ في توليدِ قناعاته، وهو لم يصل إلى هذه القناعاتِ أنفسها إلا بعد أن خَبِرَ وعانى واكتشف في تجاربه العميقة عبر حياته المديدة أن لا نهضة لأمةٍ بمعزلٍ عن عنصرٍ جوهريٍّ موحِّدٍ وجامعٍ لها شريطة أن يكون هذا العنصر غيرَ الدِّين، وساطع لم يستلهم هذه الحقيقة؛ بل استقرأها.

ذلك أنّه حينما تخرّج من المدرسة الشاهانيّة أو الملكيّة بإسطنبول - وهي مدرسة مخصّصة للتدريب الحديث في الإدارة العثمانيّة- قُيّض له بسبب من تخرّجه من هذه المدرسة- وهو ذو الميول العلميّة والتربويّة أصلاً بحسبان عمله مدرّساً قبل كلّ شيء-أقول: قُيِّضَ له أن يُعيّن قائممقاماً في قضاء رادويشتا في ولاية قوصوه بمقدونيا، كما عمل أيضاً قائممقاماً في قضاء فلورينا في ولاية موناستير بمقدونيا. والواقع أنَّ عمل ساطع بصفته

(١) المرجع نفسه، ص: ٣٧٥.

قائممقاماً - وهو أعلى منصب إداري في الأقضية - أتاح له أن يطلع في مقدونيا بخاصّة وفي البلقان بعامّة على حركات التمرد القوميّ ضد العثمانيين- وهو الذي يمثلهم بصفته قائممقاماً. وهناك في مقدونيا بدأت تتنامى في ذهن ساطع فكرة تحويل الخلافة العثمانية إلى ملكيّة دستوريّة يتساوى فيها المواطنون الأتراك وغير الأتراك كحلٍّ لمشكلة حركات التمرّد ذات الطابع القوميّ[1].

كما أنَّ انعطافاً جوهريّاً حدثَ في حياة ساطع، إذ إنَّ جمعية الاتحاد والترقي اتصلت به في فلورينا، وكانت هذه الجمعيّة التي تأسست عام ١٨٨٩، وبدأت تنشط في البلقان، تحديداً في مقدونيا ابتداءً من عام ١٩٠٦ تدعو إلى الانقلاب على منظومة القيم العثمانيّة على جميع المستويات، وقد ساعد على هذا الانقلاب انضمام اتحاد تركيا الفتاة إلى موجة الاعتراضات القويّة ضد السلطان عبد الحميد الثاني، ما ساعدَ على نشوب ثورة عام ١٩٠٨ التي أنهت سيطرة هذا السلطان نفسه على الحياة السياسية.

وهنا شاهد ساطع – وهو قريبٌ من الأحداث[2]؛ بل منخرطٌ فيها- كيف استطاع حزبا الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة فصل الدِّين عن الدولة. وقد رافق هذا الانقلاب السياسيّ الكبير في الدولة العثمانية انقلابٌ في حياة

---

(١) راجع معلومات مهمة من هذا القبيل عن حياة ساطع الحُصْري في بحث محمد عيسى صالحية، مناقشة الأعمال الكاملة لساطع الحُصْري بين العروبة والعلمانيّة، مجلة البلقاء العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (٧)، العدد١، ٢٠٠٠.

(٢) يُنظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦م، ص: ٢٤٠ وما بعدها.

ساطع نفسه، فترك العمل الإداريّ في الولايات، وتولّى مناصب تربويّة وعلميّة رفيعة داخل الدولة العثمانيّة متناغماً؛ بل مشاركاً في إصلاحٍ تربويٍّ مزعوم أملته عليه السياسات التعليمية والتربويّة للاتحاد والترقي وتركيا الفتاة، علماً أنَّ ساطعاً نفسه قبل أن يكون قائممقاماً عمل بصفته مدرّساً في ولاية يانية التي تقاسمتها ألبانيا واليونان بموجب معاهدة لندن عام ١٩١٣؛ لكن ساطعاً بعد أن اكتشف أنَّ حزب الاتحاد والترقي كما رسّخ آيديولوجيته **بهاء الدِّين شاكر** على وجه التحديد، وهو المنظّر الثوريّ للاتحاد والترقي، وانتهت حياته بالاغتيال في برلين في عام ١٩٢٢ على يد **أرشافير شيراكيان** أحد أعضاء الاتحاد الثوريّ الأرمينيّ، نظراً لاتهامه بأنّه أحد مهندسي الإبادة الجماعية للشعب الأرميني، أقول: بعد أن اكتشف ساطع آيديولوجية الاتحاد والترقي القائمة على مبدأ سيادة الأتراك على بقية الأعراق التي خضعت شعوبها باسم الإسلام للخلافة العثمانيّة المزعومة، جاء الإصلاح في نظر ساطع هباءً وقبضَ ريحٍ. زدْ على ذلك أنَّ ساطعاً لاحظَ انهيارَ كلِّ المعاني والقيم المشتركة بين الأتراك والعرب بتأثيرٍ من فيلسوف حزب تركيا الفتاة **ضياء كوك ألب**، فحتى الإسلام تحوّل إلى إسلام بنسخة تركيّة، فقد استطاع ضياء كوك ألب، تنظيريّاً على الأقل، أن يضع تصوّراً مستقبليّاً لتركيا يقوم على العِرق والأخلاق الإسلاميّة بمعناها الصوريّ، على أساس الانفتاح على العلوم الأوروبية تحديداً الوضعيّة منها. وسرعان ما بلغت الدعوة إلى العرق التركيّ أوجها مع تنظيرات اليهوديّ التركيّ موئيز كوهين أحد أكبر دعاة الطورانيّة، وقد جاءت هذه التسمية «الطورانية» من طوران، وهي المنطقة الممتدة من إيران إلى بحر قزوين، وهي مهد القبائل التركيّة.

وعلى أيّ حال، في خِضَمِ هذه الأحداث نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ إلى أن انتهت عام ١٩١٨، فأدّت إلى هزيمةِ الدولة العثمانيّة بما فيها من تيارات سياسية على اختلافها، علاوة على قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ وما ترتب على ذلك من إخراج العثمانيين من الحجاز وسورية والعراق.

وفي تلك المرحلة حدث الانعطاف الأكبر في حياة ساطع، إذ بعد أن توِّج فيصل بن الشريف حسين ملكاً على سورية عام ١٩١٨ دعا ساطعاً ليتولّى منصب وزير التعليم في أولِ حكمٍ عربيٍّ مستقلٍ عن الأتراك في سورية.

«رأى ساطع الحصري في الدولة العربية التي تكوّنت في سوريا تحت حكم فيصل الأول بن الحسين تجسيداً للحركة القوميّة العربيّة لأنها نتاج الثورة العربيّة، جوهرها القوميّة ومظهرها يقدّر الحياة العصريّة تمام التقدير، حتى إذا ما حلّت نكبة ميسلون تمزّقت الدولة وتبعثر رجال الثورة وتفرّق دعاة القوميّة في مختلف الأقطار. وكان ساطع الحصري قد عُيّن في سوريا مفتشاً عامّاً للمعارف ثم عيّن مديراً للمعارف في مجلس الديرين (مجلس الوزراء)، ثم وزيراً بعد الاستقلال حتى الاحتلال الفرنسيّ لسوريا»[1].

والحقيقة أنَّ فيصلاً لم يكن ليدعو ساطعاً إلى هذا المنصب الكبير- كيفما اتفق-، ما يعني بما لا يقبل مجالاً للشك أنَّ ساطعاً قد خدم الثورة العربية الكبرى - وهو في تركيا-، بمعنى أنَّ هناك دوراً مستوراً لساطع في الثورة العربية الكبرى، بدلالة أنّه كيف يسوِّغ الملك فيصل بن الحسين لنفسه

---

(١) محمد عيسى صالحية، مناقشة الأعمال الكاملة لساطع الحُصْري بين العروبة والعلمانيّة، مجلة البلقاء العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (٧)، العدد١، ٢٠٠٠.

– وهو من زعماء الثورة ضد الأتراك–أن يدعو رجلاً ذا ميولٍ إلى التتريك ليصير وزيراً في حكومته، إذ إنَّ ساطعاً كما يذكر الكثير من المؤرخين كان يدعو إلى التتريك في صحيفة «تورك أوجان»

وعليه، إنَّ دعوة الملك فيصل له تؤكد كونه داعماً للثورة العربية الكبرى. وكيف لا؟! وساطع هو عاشق العروبة الأول! وأصالته تتجلّى كما قال ألبرت حوراني بحقّ في أنّه: «كان عليه أن يقرّر أن يكون إما عربيّاً أو تركيّاً». لكن ساطعاً قرّر أن يكون عربيّاً صميماً.

وكان ساطع واعياً تماماً بصعوبة ترسيخ الإيمان بالوحدة القوميّة عند العرب، وعلى هذا الأساس قال ساطع: إنَّ الإيمان القوميّ «حديث العهد بكلّ معنى الكلمة. إنّه لم ينتشر بعد انتشاراً كافياً يسمح لنا بأن نقول: إنه أصبح متأصلاً في النفوس. فإنَّ جيل الأمس، جيل الشيوخ مثلي، كان يجد نفسه بين تيارات عديدة، تدفعه أو تجذبه إلى اتجاهات مختلفة، تبعده عن الاتجاه القوميّ، وذلك مثل التيارات والنزعات التي كانت تُعرف باسم «الجامعة العثمانية» و«الجامعة الإسلاميّة»، و«الرابطة الشرقية». وأبناء ذلك الجيل كانوا في حاجة إلى التغلّب على تلك التيارات القوية والقديمة، لكي يتوصلوا إلى «الإيمان بالقوميّة العربيّة». أما الجيل الحاضر– جيلكم أنتم– فهو لا يزال يتعرض إلى تأثير تيارات مختلفة، تنازع «الإيمان بالقومية العربية» بل تعاديه. فإنَّ هناك النزعات الإقليمية التي تربط نفوس الكثيرين بالدول التي قامت بعد الحرب العالميّة ربطاً يبعدهم عن الإيمان بوحدة الأمة العربيّة. وهناك النزعات العالميّة التي أخذت تتسرب إلى نفوس البعض بأشكال مختلفة، وصارت تزدري النزعات الوطنية والقومية، وذلك فضلاً

عن التيارات التي تعادي القوميّة العربيّة تحت ستار الدّين، دون أن تقدّر حقائق الدّين ومصالح الدّين»[1].

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أشيد بعبقريّة ساطع حينما بنى وحدة العرب على لغتهم، فاللغة ليست شيئاً عارضاً بالنسبة إلى الكينونة الإنسانيّة؛ بل إنَّ فيزيولوجيّة كلِّ إنسانٍ على حِدَته لا تكتملُ إلا إذا صار ناطقاً بلغةٍ من اللغات، وهذا يعني أنَّ اللغة مقوِّمٌ كيانيٌّ لوجود شعبٍ من الشعوب أو أمّةٍ من الأمم، ولئن كانت اللغة حاملاً رئيساً لمعتقدات شعبٍ من الشعوب، فهذا لا يعني أنَّ لهذه المعتقدات أنفسها الأولويّة على اللغة بحسبانها ماهيّة تكوينيّة مشتركة بين أفراد هذا الشعب.

وإذا ضربنا مثلاً في هذا الاتجاه عن الشعب العربيّ نلاحظ أنَّ أفراداً رغم تجانسهم المشترك ديِّنون بأديان مختلفة لكلِّ دينٍ منها نسقه الفقهيّ أو اللاهوتيّ الخاصّ به، ولكلِّ دينٍ منها أيضاً تصوراته الميتافيزيقية التي قد تختلف مع هذا الدِّين أو تتفقُ مع ذاك، فانبثقت طائفيّة مصطنعة داخل الوجود العربيّ، بل اصطُنعت المذاهب والفرق داخل كلّ طائفةٍ بعينها. هذا إلى تنامي النزعات الإقليمية والشعوبية والقبليّة وغيرها داخل النسيج العربيّ الواحد، لذلك بحث ساطع في ما وراء هذا كلّه عن العنصر الموحِّد الجامع للشعب العربيّ ووجده في اللغة، تُعَدُّ اللغةُ في رأي ساطع عنصراً موحّداً أكثر من التاريخ المشترك نفسه رغم أهميته الكبيرة، ويفسّر ساطع ذلك على أساس أنَّ في التاريخ وفقاً لرأيه تجارب مريرة قد تتسبب في حال

(١) ساطع الحصري، حول القومية العربية، منتديات الوحدة العربية، ص:٨.

http://arab-unity.net/forums/index.php

استحضارها بتهديد وحدة الشعب وإيقاظ صراعاتٍ قديمةٍ وفتن نائمة لا حاجة للناس بها.

إذن، من اللغة العربيّة ينتقلُ إلى التعيُّن الوجودُ القوميُّ العربيُّ، فننتقلُ من الماهيّة إلى وجودها، ومن الإمكانية إلى تحقيقها.

هذه هي صرخة ساطع الباكوريّة المدويّة التي لم يسبقه إليها أحد، فقد كان إيمانه بالعروبة صادراً عن فهمٍ عميقٍ للغة، فاللغة ليست وسيلة للاتصال فقط بين البشر، أي ليست أداة أو وسيلة لخدمةِ غرض يعلو عليها، بل هي الفاعلُ الرئيس في منح شعبٍ من الشعوب كينونته الأصيلة.

وأخيراً أقول:

ينبغي الاهتمام أكثر بهذا المفكّر العربيّ السوريّ الكبير، والعمل بجِدٍّ على ردّ الاتهامات والافتراءات والتلفيقات التي تعرّض لها، وما يزال يتعرّض لها إلى الآن، فتارةً يُوصف بأنّه علمانيّ ضد الدّين، وتارةً أخرى بأنَّ ميوله الداخليّة مع القوميين الأتراك وإلى ما هنالك من أقاويل. لكن ما ذنب ساطع؟

أعتقد أنَّ ذنبه عند هؤلاء هو أنّه تجاوز الطائفيّة والإقليميّة ومن قبلهما العثمانيّة والطورانيّة وغير ذلك كثير ليكون المثال الكبير عن الإنسان العربيّ؛

لكن ها هو أبو الطيب المتنبي يقول:

مغاني الشِّعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيعِ من الزَّمان

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ



ساطع الحصري رجل الدولة
ومُنَظِّر القومية العربية

عاش عمره للقومية ولم يختر بديلاً عنها

من صنعاء إلى دمشق وبغداد والقاهرة رحلة من القومية

د. إسماعيل مروة

حمل لواء الفكر القومي، فارتبط اسمه باسمه، وتحوّل إلى أبٍّ روحي لفكرة القومية العربية في تاريخنا المعاصر، وهناك كثيرون يوازنون بين ساطع الحصري في الفكر القومي عامة، وزكي الأرسوزي في فكر البعث.

هذا في الوقت الذي نجد فيه كثيرين يشككون بساطع الحصري، وبنظريته القومية، أو بتعبير أدق نظرته إلى القومية العربية، بل هناك من يذهب أبعد من ذلك في التشكيك بمعارفه وعلمه وطروحاته، بل في نياته الفكرية والعلمية، واليوم لا وجود له بيننا، وعلينا أن نتعامل مع إرثه المكتوب، وما خلفه لنا من رؤى فكرية، وشواهد على المرحلة التي قضاها.. كما إنه من الواجب على المؤرخ والباحث المنصف أن يعيش عصر ساطع

الحصري، وأن يشاركه همومه ورحلاته، وأن يعيش في ظروفه التي عاشها، ليتمكن من استخلاص المجريات على أرض الواقع، لا أن يخضعه لرؤاه هو، ولا لتطلعاته هو، وهو الذي مرّ قرن من الزمن على المسافة التي تفصلنا عنه، فهو شاهد الدولة العربية الأولى، وشاهد يوم ميسلون ليوسف العظمة، وكان فيها وزيراً وفاعلاً، أنا هنا لا أدافع عن ساطع الحصري، بل أمارس عليه عملية الأنسنة الطبيعية، فما قدمه عن يوم ميسلون يكاد يكون وحيداً لشاهد، أم إننا سنتبع أهواء الذين زعموا أن العظمة فرّ من المعركة! أو الذين قالوا: العظمة انتحر، وقد مرّ في ندواتنا التوثيقية ما قاله العلامة الطبيب حسني سبح عن العظمة ومعاينته لجثته والقيام بدفنه في ميسلون مع نخبة من الأطباء الشهود، ومع ذلك ولأننا لا نقرأ ولانتابع حتى قضايانا، لا يزال بيننا من يشكك في انتماء العظمة، وإن كان تركياً، وعن ولائه، وعن مشاركاته في حروب البلقان، دون أن يلتفت هؤلاء إلى شهادات الفرنسيين عن العظمة نفسه وبطولاته!

وذهب بعضهم أبعد من ذلك، فالتساهل في وصية يوسف العظمة ابنته ليلى ردّه بعضهم إلى أنها ذهبت إلى أهلها في الأناضول، هي ذهبت وعاشت هناك، لكن هل حفظنا وصيته لتبقى متجذرة في الأرض السورية الوطنية؟!

هكذا يجب أن نتعامل مع التاريخ والقامات والشخصيات من وجهة نظري على الأقل، ودون ذلك سنبقى في دائرة التخوين والرفض لكل ما هو مميز لدينا ومتمايز في سطوعه، فماذا عن ساطع الحصري رجل الدولة؟

وماذا قدّم الحصري؟ أين أخطأ؟ أين أصاب؟ وبعدها يمكن أن نقوّم التجربة لنخرج إلى مرحلة أفضل وأعلى، ونتجاوز الشخص الذي طرح آراءه ورحل، تاركاً إرثاً ضخماً فكراً وتاريخاً ونظرية قومية حملت اسمه بكل حسناتها وطزاجتها وسلبياتها.

أترك الجوانب الفكرية والفلسفية للمختصين، وأكتفي باستعراض جهود ساطع الحصري في بناء الدولة السورية الأولى عندما حملت اسم المملكة، وحتى تخصيص حياته من أجل الفكرة القومية العربية تقليداً للقومية الطورانية، أو تتبعاً لخطاها، أو لأي غاية يراها الباحثون!

يمكن أن ننحّي الغاية جانباً، وأن نبني على تراث علمي وفكري وعملي قدمه الحصري في مرحلة كان فيها علماً يشار إليه، ولا يمكن تجاوزه بغض النظر عن الأسباب التي جعلته كذلك.

❖ التنقُّل وطبيعة المرحلة:

- ولد في صنعاء اليمن ١٨٧٩، وأصله من الحجاز، وقدمت أسرته إلى حلب في القرن التاسع الهجري.
- عمل إدارياً عثمانياً في البلقان.
- عمل مع الملك فيصل في الحكومة العربية.
- صار وزيراً للمعارف في سورية.
- فاوض غورو شخصياً قبل ميسلون.
- غادر إلى العراق مع فيصل وتولى المعارف والثقافة.
- عمل في جامعة الدول العربية.

- توفي ١٩٦٨ ودفن في بغداد.
- ليس حديثاً في السيرة، وليست الغاية تناول حياته الخصبة بالتعداد وفقط، بل إن الحديث هنا يتناول جانبين:
- طبيعة المرحلة.
- المؤثرات في فكره ونظريته.

طبيعة المرحلة

نسمع كثيرين يحاكمون الناس، والأعلام خاصة، من منظور حياتي يحبونه هم، ومن هؤلاء الأعلام الذين نالهم نقد قد يكون صحيحاً وقد يكون ظالماً ساطع الحصري، ولكن الحكم النقدي الحقيقي يجب أن يذهب بالناقد إلى تلك المرحلة التي عاشها الشخص المدروس، فلا يجوز أن ننتقد العصر الإسلامي من منظورنا، ولا أن نقوّم حركة القرامطة، وحركة الزنج من منظورنا، ولا حركة الصعاليك وفق رؤانا..!

بل علينا أن ندرسها على حقيقتها في زمنها، فكم من الناس ظلموا البرامكة، وكم منهم من ظلم الرشيد!؟ وكلا الجانبين يملك جزءاً من الحقيقة والصواب.

إن محاكمة الناس من منظور قومي أو ديني أو أيديولوجي توصلنا إلى أحكام خاطئة وخطيرة، فمع المدّ الاشتراكي ظهرت دراسات تبين لنا الصعاليك أحفاد ابن الخطاب! بل أحفاد كارل ماركس!

وهذا خطأ جسيم، حدث للبرهنة على وجود اشتراكية لدينا أو حركات ثورية من منظور المؤدلجين كما في حركة الزنج أو القرامطة أو البرامكة، وهي لم تكن كذلك وإنما بنت مرحلتها.

هذا الحديث للدخول في عالم أبي خلدون، ساطع الحصري، فهو بلا مراء وبلا تحفظ عربي النجار والفكر، حجازي الأصل، يمني المولد، دمشقي الهوى والولاء، عراقي العمل والوفاة، عربي الغايات، وعثماني العصر والمرحلة، إذ وجد في زمن كانت الدولة العثمانية هي الحاكمة، وليس بمقدوره أن يخترع دولة تناسبه، وهو في كتاب من أهم كتبه نشر عام ١٩٥٧ (البلاد العربية والدولة العثمانية) يظهر بجلاء، ومن منظور عصره، فقدم البلاد العربية كأصقاع، والدولة العثمانية جاءت تالية لأنها التي تملك مفهوم الدولة الحاكمة، وهذا تقرير واقع للمرحلة التي عاشها، فالبلاد العربية مفرقة لا تشكل دولة بالمفهوم الذي يريده، ولكنها تخضع لحكم دولة هي الدولة العثمانية، وقد شكك بعضهم بساطع الحصري وعمله في الدولة العثمانية! وفي تلك المرحلة لم يكن بإمكانه أن يعمل ضمن إطار الدولة إلا في منظومتها.. يبدأ كتابه.. استولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية، خلال القرن السادس عشر، في مدة لا تتجاوز الأربعين عاماً، بدأت حركات الاستيلاء سنة ١٥١٦ حين انتصرت جيوش السلطان سليم العثماني على جيوش المماليك في مرج دابق بالقرب من مدينة حلب.. وبعد ذلك أخذ العثمانيون يتغلغلون غرباً وشرقاً وجنوباً، ويستولون على البلاد العربية.. إن البلاد العربية بقيت تحت الحكم العثماني على الرغم من بعض الثورات التي قامت والوقائع التي حدثت في بعضها في تواريخ مختلفة حتى القرن التاسع عشر.. ثم صارت تخرج عن نطاق هذا الحكم، الواحدة بعد الأخرى، في تواريخ مختلفة، وبصور شتى[1].

نلاحظ هنا نقاطاً عديدة:

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية- ساطع الحصري ٩-١٠.

١- العثمانيـون (اسـتولوا) وهـذا تعبـير يـدل عـلى قناعتـه بـأنهم قـوة احتلال.

٢- انتصروا على المماليك، وليس على العرب، فالدولة غير عربية.

٣- حال التردي العربي جعل الصراع بين دولتين غير عربيتين.

٤- أربعون عاماً كانت كافية لاحتلال البلاد العربية.

وفي كتابه يذكر الحصري بعض الوثائق والمراسـلات، التـي قـد يغـض أعلام الدين، بإعلاء كلمة الحق المبين، ورفع لواء أهل الإيمان بلمعان بارقـة سيوفهم على ظلمات الكفرة والمشركين، وفـتح علينـا أبـواب النـصر والظفـر بكسر أحزاب الشياطين، وبلاد الكفار الملاعين»[1].

أما السلطان محمد الثاني فيرسل مـن جانبـه لعزيـز مـصر (أينـال شـاه) بمناسبة فتح القسطنطينية «إن من أحـسن سـنن أسـلافنا، أنهـم مجاهـدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون، وعـلى تلـك الأمنيــة دائمــون، ممتثلــين بقولــه تعــالى: «قــاتلوا الــذين لا يؤمنــون بــالله» ومتمسكين بقوله عليه السلام (من اغبّرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار)[2].

فأسس الدولة العثمانية هي أسس دينية، حتى لقب حاكم مصر (عزيز مصر) وهو ليس عربياً كما يدل اسمه (أينال شاه) فعن أي شيء نلوم سـاطع الحصري؟! بل إننا يجب أن نشكر بحثـه في تلـك المرحلـة التـي عاشـها، فهـو

---

(١) البلاد العربية: ٢٢- ٢٣.

(٢) المصدر السابق ٢٤.

يظهر بما لا يقبل الجدال الأسس التي بنيت عليها الدولة العثمانية لحكم البلاد المحتلة، ومنها البلاد العربية، وفي الوقت الذي نجد العبارات حتى لدى المتخصصين إنشائية كانت الأمور واضحة لدى الحصري، فتتبعها كرجل فكر ونظرية، ورجل دولة.

«إن أول من أثار مسألة بناء الدولة على أساس العثمانية أو الإسلامية أو الطورانية، كيوسف آقجورا، كان من أتراك روسيا، من نواحي قازان على نهر الفولغا، درس في جامعة أورنبورغ في روسيا، ثم واصل الدراسة في مدرسة العلوم السياسية في باريس، فإن نظراته إلى الأمور مجردة من تقاليد السلطنة العثمانية، جعلته يحسن تقدير أهمية مبدأ القوميات في توجيه السياسات.. ولكن هذه الأمور لم تتبلور في أذهان رجال السياسة تبلوراً كافياً لجعلها موضوع خطط حزبية وسياسية، حتى إن جمعية الاتحاد والترقي نفسها لم تر لزوماً لتقرير خطة صريحة في هذا المضمار»[1].

ولعل أهم ما في الكتاب متابعة ساطع الحصري لاحتلالات البلدان العربية، وتدوينه للمفاوضات والاتفاقات من عام ١٩١٢ مع فرنسا وبعد ومع بريطانيا وألمانيا، ومن ثم تفصيله في الولايات وإدارتها وقوانينها، وسلاطين آل عثمان..

كان بإمكان ساطع الحصري أن يتجاهل هذه المرحلة، لكنه بفكرته القومية كان يرصد الحركات بدءاً من دولة الاحتلال ويتابعها، ورؤيته كرجل دولة يؤمن بالدولة وأهميتها، وقواعد تشكيلها جعلته يبحث في مكونات الدولة، بادئاً كذلك من دولة الاحتلال.

---

(١) المرجع السابق ١٢١-١٢٢.

بهذه النظرة العلمية الناقدة والتي ترى العثمانيين احتلالاً واستيلاء تناول الحصري المرحلة، ومن حقه علينا أن ندرسه وفق مرحلته التي عاش فيها، ولم تكن البلاد العربية سوى قطع يحتلها المماليك ومن ثم العثمانيون، ومن بعد ذلك الأوروبيون، كما يصف الحصري نفسه احتلالات البلاد العربية.

وربما دفعت الأحداث التي تجري اليوم على الأرض العربية إلى إعطاء فكرة عن بلداننا العربية التي لم تتحول بعد إلى مفهوم الدول القومية إلى التفكير بأن البلاد العربية على الدوام جائزة يتفاوض عليها المحتلون الأقوياء ويعقدون الاتفاقات، وأهلها غائبون!

أما من وجود لبريطانيا اليوم؟

أما من تدخل لفرنسا؟

أما من أطماع لإيطاليا؟

أما من نهم سلطاني عثماني؟

أضف إلى ذلك الدولة الجديدة التي ترى في البلاد العربية كنزاً من الثروات، وطريقاً لا يتخلى عنه الطامع لدرب التجارة القادم.

المؤثرات في فكره ونظريته

هناك عدد كبير من المفكرين والسياسيين الذين تحدثوا في القومية والفكر القومي، وأغلب ما صدر عن هؤلاء لم يكن يحمل قيمة فكرية نظرية أو واقعية، ويجانبه الصواب في التأسيس لنظرية قومية، وذلك لأسباب عديدة.

- الانطلاق من الواقع وحسب.

- الاعتماد على ردات الفعل السياسية والتاريخية.
- المعرفة القاصرة بالفكر المماثل والشبيه.
- القسْر السياسي في تحديد الهوية القومية.
- جمع ما لا يمكن جمعه في حزمة واحدة.

لكن أبوّة ساطع الحصري للفكر القومي، من حيث هي فكر لا يتطرق إليها شك، وبالمناسبة هناك من يشكك بعروبته ونظريته عن جهل أو حقد، وذلك لأن الحصري عربي أصيل، وعمل في الدولة العثمانية، فالدولة هي التي تستوعب مواطنيها، سواء كانت دولة وطنية أم دولة مستولية محتلة، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نحاسب كل الذين مارسوا أعمالهم وانضووا في العمل الوظيفي تحت مؤسسات الدولة الحاكمة، وإلا بقي الحصري وسواه هائماً على وجهه يبحث عن لقمة عيش أو يموت قهراً.. أعود لأقول: إن أبوّته للفكر القومي العربي كانت حقيقية وارتكزت إلى مجموعة من الركائز التي لا يمكن إنكارها:

- هو عربي من البلاد التي خضعت للدولة العثمانية.
- ارتقى مناصب علمية أهّلته أن يكون وسط النخبة.
- تجول في بلدان عديدة تخضع للدولة العثمانية.
- عاش مدة في دول البلقان ورصد تبلور الفكر القومي.
- انطلق من التنظير للفكر القومي عامة، ولم ينطلق من الفكر العربي.
- استفاد من تطور الفكر القومي في الدول المستقلة وأخطائه.
- رصد التكتلات وتحولاتها مما قبل القومية إلى ما بعد تشكلها.

هذه الأشياء وسواها من المرتكزات جعلت رؤية ساطع الحصري رؤية شاملة، غير إقصائية، وغير متعصبة، وقابلة للتحقيق، وربما كان هذا من الأسباب التي جعلت ساطع الحصري محط انتقاد من دعاة الوطنية والقطرية، أو من دعاة الرابطة الدينية التي كانت سائدة، والتي أشرت إلى توثيقه لها في مراسلات بين السلطان العثماني وعزيز مصر، وكلاهما غير عربي، إضافة إلى استخدام صفتي السلطان والخليفة من الدولة والبلاد العربية، وما في ذلك من دلالة دينية عميقة، واستغلال التعبير القرآني عزيز مصر، ما بين العزيز الذي ورد في القرآن الكريم، ويوسف، والحاكم شاه الذي يحكم مصر تحت رابطة دينية، من مصلحة السلطنة وعزيز مصر أن تبقى سائدة لإلغاء الشخصية العربية المستقلة، والتي بلورها الحصري دون سواه بفكرة القومية العربية، ففي كتابه المهم «نظرة عامة- نشوء الفكرة القومية» والذي يرافقه عنوان فرعي (الانقلابات السياسية التي نجمت عنها في أوروبا منذ أوائل القرن التاسع عشر) نجد خلاصة الفكر القومي وتحليله عند الحصري، ولا يقتصر الأمر على القومية العربية، فنحن أمام باحث يحاضر عام ١٩٤٨ في القاهرة سلسلة من المحاضرات تقدم خلاصة تجربته وقراءاته وجولاته، فالفكر القومي عنده ميداني غير مثالي.

- نظرة عامة إلى نشوء الفكرة القومية في أوروبا.
- نشوء الفكرة القومية في ألمانيا.
- نشوء الفكرة القومية في بلاد البلقان.
- نشوء الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين.
- نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية.
- النظرة المستقبلية للقومية العربية.

يربط ساطع الحصري بحذق بين مفهومين:

١- مفهوم القومية.

٢- مفهوم الدولة.

وهو لا يصف الدولة بالقومية، وإنما يرى أن الفكرة القومية كانت سبباً للبحث عن مفهوم الدولة، دعا إليها حسب التكتل وتشكيل هوية، ويرى كذلك أن الفكرة القومية طريق لنشوء الدولة، ومن ثم يتم البحث عن تكتلات أخرى تكون القومية منطلقاً لها، وهو ما حدث في أوروبا ووصفه بالانقلابات، ففي غمرة الاحتلالات والاستيلاءات وغياب الهوية لابد من شيء جامع وهو ما أطلق عليه الدعوة القومية، وسنقرأ له حديثه عن الدعوات الأخرى كالإقليمية والدينية، إذ يرى أن الأولى تسعى إلى التضييق والقوقعة، والثانية تضيع الهوية التي يبحث عنها، والدعوة الإقليمية تخلق سياجاً يصعب معه نشوء تكتل الدولة، والدعوة الدينية تتماهى فيها الحدود التي يمكن أن تشكل دولة.

فالأهمية الأولى لفكر الحصري تكمن في أن نظرته ونظريته في صلب تأسيس كيان الدولة التي قد تلجأ إلى تكتل أكبر بعد أن تكتمل كما حصل في أوروبا، وهو إذ يضع هذه الأطر بعد أن عاينها، وهو في قلب النخبة السياسية والفكرية ليس صاحب اتجاه سياسي أو حزبي، وليس صاحب سلطة ليسخر الفكر لصالحه، وهذا ما حصل مع جميع منظّري الأحزاب القومية التالية التي حرصت على تقديم النظرية بما يخدم توجهاتها.. وهذا ما جعل آراء الحصري صالحة لأي توجه قومي، لأنها خالية من الغاية والغرض!

العمق الذي ينطلق منه الحصري يقوم على دراسة الدولة ومفهومها، وعلى نشوء القوميات، أي مرحلة ما قبل القومية، ومرحلة القومية، بل ويتابع إلى ما بعد القوميات، فهو يسلّم بضرورة الفكرة القومية، ويسلّم بأن الفكر القومي يمثل مرحلة من مراحل تكوّن الأمم والدول «نشأت هذه الفكرة، وأخذت تتغلغل في النفوس، في أوائل القرن التاسع عشر، وفي الوقت الذي كانت معظم الدول القائمة في أوروبا مؤسسة على أسس تختلف عن مقتضيات مبدأ القوميات اختلافاً كلياً، إذ كان هناك دول كثيرة، تحكم كل واحدة منها أمماً عديدة، كما كان هناك أمم عديدة توزعت كل واحدة منها بين دول كثيرة.. كان من الطبيعي أن تتفكك أوصال الدول المؤلفة من أمم متعددة، وكان من الطبيعي - بعكس ذلك - أن تتحد أوصال الدول التي تنتسب إلى أمة واحدة»[1].

يعالج هنا الحصري مسألة الاستعمار والاستيلاء، فنحن أمام نوعين من الدول غير المتجانسة، والتي لا تقبل الحياة:

١- دول كبيرة تحتوي أمماً عديدة.

٢- أمم موزعة على أكثر من دولة محتلة.

ويستخدم الحصري هنا تعبير الأمم المعادل لمصطلحه العربي (البلاد العربية) ويضرب لذلك الأمثلة في حديثه عن الدولة العثمانية والدولة النمساوية والألمانية ليظهر وجود التشابه بين فئات من الناس الذين يشكلون أمة، ويمكن أن يشكلوا دولة متجانسة وفق مواصفات، وهو ما أطلق عليه مصطلح (القومية). فالقومية العربية لم تكن بدعاً، فالبلاد

---

(١) المرجع السابق ص ١٠.

العربية، أو الأمة العربية ضمن خليط دولة غير متجانس، وهي الدولة العثمانية، ومن تجربته خلال عمله ضمن الدولة في البلقان درس الاختلافات بين أمم البلقان والدولة العثمانية، ما أدى في النهاية إلى تفكك الدولة العثمانية، وهو بهذه الإشارة يعطي السياق التاريخي للنزعة القومية التاريخية العربية، ويبعدها عن مفهوم الانفصال والخيانة لدولة الخلافة الإسلامية كما يزعم كثير من العرب الذين يجدون في الرابطة الدينية كفاية للاستمرار، ويتغاضون عن الممارسات القومية للدولة الحاكمة، ويجدون المسوغات للممارسات الاحتلالية والاستيلائية تحت بند التصرفات الفردية أو الحزبية أو السياسية، متناسين كيان الدولة المتجانسة نوعاً ما.

«إن تأثير نظرية وحق القوميات، في الأوضاع السياسية والدولية، ظهر شيئاً فشيئاً، وفي مملكة بعد أخرى، واستوقف أنظار الكثيرين من الكتّاب والمفكرين، خلال سير هذه النظرية واختمارها، وكان البعض يستبشر بها، والبعض منهم يتوجس خيفة منها، والبعض يدعو إليها، والبعض يناهضها، وكل ذلك حسب ما كان يتوقع منها لبلاده من المنافع والأضرار»[1].

السيرورة التاريخية هي التي حكمت المرحلة تلك، وكانت القوميات ضرورة مرحلة، ولا بديل منها لانتهاء مرحلة تاريخية وبداية مرحلة جديدة، والحصري دون غيره من الكُتّاب والمفكرين، وهو وحده، من يحق لنا أن نطلق عليه صفة المفكر القومي، تمتع بالإنصاف، وها هو عندما يذكر الآراء

---

(١) المرجع السابق ٢٠.

من القومية، والموقف منها يعدد الآراء كلها، ولا يرجح رأياً على آخر، وعندما يذكر أسباب تعدد هذه الآراء، فإنه ينسبها إلى المنافع المتوقعة للبلاد من كل جانب، ومن كل رأي، ولم يلجأ إلى التخوين والتخطئة، وإنما نسب ذلك إلى رأي وطني ملتزم بالبلاد!

هذا في الوقت الذي رأينا، وما نزال نرى من يخوّن الحصري لأنه تحدث في القومية، فهو في نظر بعضهم طوراني تحوّل، متناسياً مفهوم الدولة التي تضم أمماً متعددة، بغض النظر عن الاختلافات، ومتجاهلاً أن الحصري موظّف في هذه الدولة.

وفي نظر آخرين عمل على هدم دولة الخلافة الإسلامية، وكان من المعاول ذات الغرض التي أدت إلى انتهاء دولة، وينسى هؤلاء ما كان من تصرفات الدولة تجاه البلاد العربية التي تقع تحت حكمها!

خوّنوه وشككوا به، وهو لم يفعل، مع أنه أصدر كتابه نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

وها هو يحدد في دراسته عناصر القومية، ويختار عناصر مهمة وقابلة للتحقيق:

«إن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران، أشد التأثير في تكوين القوميات، ونستطيع أن نقول: إن اللغة بمثابة روح الأمة وحياتها، والتاريخ بمثابة وعي الأمة وشعورها، والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها، وأصبحت في حالة السبات، وإن لم تفقد الحياة، وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها، بالعودة إلى تاريخها

القومي، وبالاهتمام به اهتماماً فعلياً، ولكن الأمة إذا فقدت لغتها تكون عندئذ فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات»[1].

وهو في هذا التصور كان سابقاً على جميع المنظّرين القوميين العرب، وكان واقعياً، إذ جعل ما لا خلاف فيه الجامع القومي، ونلاحظ أنه كان أكثر جرأة من كثير من القوميين الذين جمعوا بين القومية والدين وجعلوا تطابقاً ما بينهما، فيما نجد أن الحصري جعل الأعم والأشمل.

وهو التاريخ مع اللغة، فالتاريخ يجمع الأمة مهما كانت شرائع الناس وتبقى الشريعة شأناً فردياً يضم الأفراد إلى جماعات، لكنه لا يشكل حالة من التنافر بين المتضادات، وهو ما جعله يشير ببراعة إلى ما فعله المستعمرون، ومن بين ذلك ما فعله العثمانيون من محاولة إلغاء التاريخ وحصره بالعقيدة التي يمكن أن تكون مسوغاً لضياع الهوية وبقاء الاحتلال، واللغة هي الهوية، وفي هذا المجال يجعل الحصري في مجمل أبحاثه التاريخ واللغة بالتضامن والتضافر، وليس باللزوم، فإن تعذرت اللغة في بعض الأحيان يجمع التاريخ، وإن للتاريخ المشترك هو الذي يجمع الشرائع كلها ويجمع اللغات المتعددة، ويحدد حياة مشتركة تبدأ من عمق التاريخ الحضاري وتمتد إلى النهاية، والتاريخ قادر على الجمع بين الحضارات المتعاقبة للأمة القومية دون أن ينفي جانباً لحساب آخر، ودون أن يلغي كرمى لشريعة أو لغة.

كما إن اللغة تشكل عند الحصري الإطار العام للحياة والتفاهم، أي اللغة المتداولة التي لا تنفي الآخر، ويمكن أن نجد أن مفهوم اللغة مطواع وظيفي للحياة، فكل الشرائح في المجتمع تجمعها العربية، لغة تفاهم وحياة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧.

وكسب عيش، من القوميات المتعددة، فهذا الكردي وذاك الأرمني، وذاك السرياني والآشوري وغيرهم كثير، بل إن عدداً من هؤلاء برع في علوم العربية أكثر ممن يدعون الأرومة العربية، وليس من ضرورة لذكر الأمثلة الكثيرة.

❖ ساطع الحصري رجل الدولة

عمل الحصري في مواقع عديدة ضمن الدولة العثمانية التي تخضع لها البلاد العربية، فعمل في البلقان واطلع على تجارب وهو في ذلك يشبه ما كان من أمر يوسف العظمة الذي كان ضمن جيش الدولة، وعندما انهارت الدولة العثمانية كان من الطبيعي أن يعود أبناء البلاد إلى بلدانهم، فعاد العظمة المقاتل العنيد ليكون أول وزير للحربية في الدولة العربية في سورية، وعاد ساطع الحصري ليكون وزيراً كذلك في الدولة العربية مملكة سورية مع الملك فيصل، وهنا ظهرت ملامح رجل الدولة عند ساطع الحصري، وإن كانت في سورية قصيرة مقتضبة جرّاء الاحتلال الفرنسي بعد معركة ميسلون، إلا أنها كانت فاعلة وغنية للغاية، ومن حسن الحظ أن ساطع الحصري كان كاتباً وشاهداً وإلا لضاع الكثير من التاريخ واختفت تفاصيل مهمة.

الحصري وميسلون واحتلال سورية: يثير الاستغراب أن الحقبة التاريخية القريبة ١٩٢٠ لا نمتلك عنها مقومات موثقة ودقيقة، وبعض المؤرخين يتعاملون معها كما لو أنها في القرون الماضية السحيقة، فاليوم الفاصل في تاريخ سورية الحديث يخضع لتأويلات وتخرصات من الكاتبين والباحثين، فهذا يشكك وذاك يدافع وفقاً للنوازع، وأهم ما لفتني أنني منذ

عقدين أردت دراسة ميسلون ويوسف العظمة فلم أجد مؤلفات مخلصة للموضوع، وعندما أصدر الباحث السفرجلاني كتابه عن ميسلون أشار إلى الفقر الشديد في المراجع وأغلب الذين درسوا ميسلون ومجرياتها لم يتميزوا بالعمق، وإنما كانوا مجرد مقمشين، يعتمدون القص واللصق، ويأخذون معلومة من هنا وأخرى من هناك.

وحده ساطع الحصري قدّم كتاباً له قيمة بعنوان «يوم ميسلون» وقد أحسنت وزارة الثقافة بإعادة طباعة الكتاب، وحبذا أن يطبع مرة جديدة بآلاف النسخ لتكون للطلبة في المدارس.. وهذا الكتاب له ميزات كثيرة:

- معايشة الحصري ليوم ميسلون.
- مشاركته في الحكومة العربية.
- مشاركته في المباحثات مع غورو تحديداً.
- احتفاظه بمحاضر الجلسات والحوارات.
- شهادته بمواقف الأشخاص الذين في السلطة.
- مراقبته أدق التفاصيل وهو في موقع رجل الدولة.

وحين قرأت يوم ميسلون أكبرت ما فعله الحصري للاحتفاظ بالوثائق والمجريات التي لا يستطيع أحد أن ينكرها، ولم يأت بها أحد سواه من المؤلفين المهوّمين والبعيدين زمنياً أو روحياً عن ميسلون، فماذا قال رجل الدولة ساطع الحصري في ميسلون وفي يوسف العظمة، وماذا نقل إلينا من محادثات ومجريات؟

«قدر لي أن أكون في تلك الأيام في قلب المسرح، في موقف خاص يسر لي الاطلاع على جميع صفحات الوقائع بتفاصيلها التامة، ذلك لأني كنت

عضواً في مجلس المديرين الذي كان يعمل عمل مجلس الوزراء، ووزيراً في الوزارة الأولى التي تألفت إثر الاستقلال، ووزيراً في الوزارة الثانية التي أعقبتها، والتي بقيت في الحكم حتى يوم ميسلون.. زد على ذلك أن الوزارة الأخيرة كانت قد عهدت إليّ بمهمة التفاوض مع الجنرال غورو عقب تقدم جيوشه نحو سفوح ميسلون، فتسنى لي من جرّاء ذلك أن أطّلع على تفاصيل الصفحة الأخيرة من القضية أكثر من أي شخص آخر»[1].

ساطع الحصري هنا لا يكتب ككاتب، وإنما يكتب كرجل دولة تولى الإدارة والوزارة، وكان فاعلاً ومفوضاً من الدولة العربية التي ينعاها وقد انتهت قبل مرور عامين على تأسيسها، وفي الكتب الدراسية والمقررات ندرس شروط غورو التي أملاها على الدولة العربية والملك فيصل وجميع الكتب والدراسات أخذت هذه المعلومات من ساطع الحصري ومن كتابه «يوم ميسلون» لأنه أراد أن يكون هذا الكتاب حاوياً على الوثائق التي اطلع عليها، ولم يطلع عليها أحد سواه من المؤلفين والكتّاب، ولننظر إلى التفاصيل التي يذكرها الحصري ولم يذكرها سواه:

«كان قد تقرر أن يسافر الملك فيصل إلى أوروبا لعرض القضية السورية على مؤتمر الصلح، وأوفد نوري السعيد، الذي كان من مرافقي الملك عندئذ إلى بيروت ليطلب من الجنرال غورو إعداد وسائل السفر، غير أن الجنرال امتنع عن تلبية الطلب، وأعلمه بأنه أعد إنذاراً رسمياً، وقد ذكر الجنرال غورو لنوري السعيد أهم الشروط التي سيطلبها في هذا الإنذار وهي:

- وضع سكة حديد رياق- حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي.

---

(١) يوم ميسلون ٩.

- قبول الانتداب الفرنسي.
- إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين.
- قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري.
- معاقبة المجرمين الذين استرسلوا في معاداة فرنسا[1].

وفي هذا الموقف يتجلى رجل الدولة الحصري عندما يحاور رئيس الوزراء ويتحدث إلى يوسف العظمة، ويكتشف الواقع المؤلم للوضع العسكري المتردي، والمناقشات الحكومية، وتعليقات الوزراء الذين تحسبوا لموقفهم في التاريخ، مثل فارس الخوري وعبد الرحمن الشهبندر حول الإنذار ليختمه بمسؤولية رجل الدولة «لم أكترث لملاحظة الأول، ولا لمعارضة الثاني، لأنني شعرت شعوراً صادقاً بأننا قمنا بأداء واجب أليم جداً، ولم أشأ أن أفكر بشيء يتعدى هذا الواجب الأليم أبداً».

وتموت الدولة العربية الوليدة ليذهب فيصل إلى العراق، ويتبعه الحصري لتبدأ رحلته في العراق.

❖ ساطع الحصري في العراق سند ورجل دولة

مع دخول الفرنسيين إلى سورية انتهى حلم الدولة العربية عند الملك فيصل وعند ساطع الحصري، ومهما كان من أمر العرب يومها، من غفلة وعدم دراية بمكائد المحتلين، فهو مسوّغ عند المؤرخ المنصف والدارس لأننا أمام مجموعة من الأمراء العرب الذين ورثوا الإمارة، ولا يملكون الخبرات السياسية والقدرة على مواجهة الإنكليز المحنكين، وكان من

---

(١) يوم ميسلون ١١٨.

الطبيعي أن يغرر بهم لا لخيانة، وإنما لجهل وعدم خبرة، ومراسلات الحسين، مكماهون خير دليل على الدهاء وعدم الخبرة والتغرير.. المهم أن دخول الفرنسيين دفع بالملك فيصل إلى العراق، والحالم بالدولة العربية ساطع الحصري بقي وحيداً إلى أن استدعاه الملك فيصل، ففي كتابه: «مذكراتي في العراق- الصادر عن دار الطليعة ١٩٦٧» يقول الحصري:

«عشت وعملت في العراق مدة عشرين عاماً، لا ينقصها إلا شهر ونصف الشهر، سافرت إليه سنة ١٩٢١، مدعواً من الملك فيصل، مؤسس الدولة العراقية، وخرجت منه سنة ١٩٤١، مطروداً بأمر الوصي عبد الإله، وقرار الحكومة التي ألفها بعد عودته إلى البلاد؟ تحت حماية الدبابات الإنكليزية التي كان يقودها غلوب المعروف بلقب أبو حنيك.

خلال الأشهر الستة الأولى من وصولي إلى بغداد، بقيت في معية الملك بمثابة مستشار في أمور المعارف، ثم توليت الوظائف التالية:

معاون وزير المعارف، مدير المعارف العام، أستاذ في دار المعلمين العالية، مراقب التعليم العام، رئيس كلية الحقوق، رئيس كلية الحقوق ومدير الآثار العربية، مدير الآثار القديمة ومدير التدريس والتربية العام، مدير الآثار القديمة»[1].

ويشير الحصري إلى أنشطته الأخرى، لأنها كانت وراء ما حدث له.

«لابد لي من القول بأني خلال هذه الفترات كلها، لم أنقطع عن القيام بأعمال تستهدف غايات أخرى، ألا وهي: بث الإيمان بوحدة الأمة العربية مع إشاعة الشعور بأمجادها الماضية» ويؤلمني أن أقول: إن هذا كان من جملة

---

(١) مذكراتي في العراق ص٧.

الأسباب التي حملت حكومة عبد الإله على طردي من العراق، مع تجريدي من الجنسية العراقية سنة ١٩٤١، بعد أن تنكرت لكل المبادئ الوطنية، ونبذت السياسة العربية التي كان يلتزمها الملك فيصل الأول، ثم نجله الملك غازي[1].

ولن أدخل في تفاصيل مذكراته في العراق لأنها تحتاج إلى دراسة من موثق متخصص في التربية والتعليم، وهذه المذكرات من الغنى بمكان بالوثائق والشهادات والمراسلات والمحادثات والقرارات، لأنها تغطي عشرين عاماً من رحلة رجل بقيت القومية العربية حلماً وميداناً لفكره، وأهم ما في الأمر كان أن ساطع الحصري مفكر يكتب ويتابع ويدرس الآراء ويضع الأطر التنظيرية للفكر القومي دون أن ينتمي إلى حزب أو يؤسس حزباً، ما يجعل الآراء التي يقدمها محل تدبر، ومحل احترام سواء اتفقنا معها أم اختلفنا، وفي مذكراته الكثير من الإشادات والاختلافات، وقد وقع له مثل ذلك في سورية، وها أمر طبيعي فالطبيعة الإنسانية قد تجعله في موقع ما يتخذ قراراً خاطئاً أو كيدياً، وقد يسيء، وثمة فرق بين قرار صاحب الموقع ورجل الدولة، وبين آراء ونظرية المفكر المهموم بقضيته القومية، وبقي ساطع الحصري متعلقاً بهذه القومية مؤمناً بها وينظر لها. واذا ما نظرنا إلى بعض آرائه ومحاضراته فنتبين ذلك ونعرف قيمة آراء الحصري دون سواه من المفكرين، ولن أدخل في صلب آراء الحصري القومية، لأنها ضمن أبحاث أخرى للباحثين المشاركين، وأكتفي بمقطع أختم به بحثي، يظهر هذه الرؤية العميقة للحصري: وهذا المقطع يدوّنه ابنه خلدون ساطع

(١) مذكراتي في العراق ص ١٠.

الحصري، وقد نشره ابنه عام ١٩٨٥ أول مرة وهو يستذكر والده ويقدم لأعماله:

«في عام ١٩٣٧ سألت والدي ساطع الحصري: «لماذا أسميتني خلدون؟ فأخذ ورقة من دفتر لي وكتب عليها التالي: وهو ينشر الآن لأول مرة: اسمع يا بني:

إنني لم أقرر أن أتحمل أعباء الأبوة، إلا بعد ما رأيت تباشير حركة بعث الأمة العربية، وقدرت الواجب الذي يترتب عليّ في خدمة هذه الحركة، وقد قلت عندئذ فليكن لي ولد، أسميه خلدون ليساهم في هذه الحركة بدوره، ويشاهد ثمراتها بصورة فعلية، حتى عندما ينتقل دور العمل لابنه يكتب تاريخ انبعاث الأمة العربية بنظرة تحليلية فلسفية يحيى بها ذكرى سميه القديم العظيم.

قررت أن أسمي ابني خلدون بهذه الصورة، وتحت هذه الفكرة قبل أن تولد أنت، حتى قبل أن يتكون الرشيم الذي أوجدك.

إن كل ما أتمناه في بقية حياتي، هو ألا تخيب الآمال التي وضعتها فيك وفي جيلك، وأن تتحقق المهمة التي تخيلتها لابنك وجيل ابنك تموز ١٩٣٧ ساطع الحصري.

كانت الآمال التي وضعها الحصري في جيلي قد خابت، ولكن، ألا نستطيع فيما تبقى لنا من عمر الاستمرار في الكفاح من دون أي انقطاع، ناقلين هذه الآمال من جيلنا إلى جيل أولادنا[1].

---

(١) من مقدمة د.خلدون ساطع الحصري للأعمال القومية هـ-و مركز دراسات الوحدة- بيروت ١٩٩٠.

- إنه رجل فكر حرٌ.

- لم يكن متحزباً بالمعنى الحقيقي.

- لم يؤسس لحزب كما فعل آخرون.

ربط حياته بالقومية العربية حتى آخر لحظة من حياته، أعطاها كل ما لديه، قد يكون ممن تعرضوا للخطأ والتغرير في كثير من مراحله، لكن كان مخلصاً لهذه الفكرة السامية، وكان ابناً لمرحلة تميزت بكل التقلبات القاسية.

فهل خاب مسعاه؟

لن تنطفئ جذوة الفكر السامي القومي، وإن اعتراه الوهن.



مختــارات مــن أعمال

ساطع الحصري

اختيــار

خلود أحمد رسول

من كتاب

يوم ميسلون

صفحة من تاريخ العرب الحديث

يوم ميسلون

والأسبوع الذي يليه

إن بدء اليوم الرابع والعشرين من تموز كان موعد انتهاء الهدنة التي عقدناها مع الجنرال غورو، فكان من الطبيعي أن يبدأ هجوم الفرنسيين على ربى ميسلون في فجر ذلك اليوم.

وأخذت تتوارد علينا بعض الأخبار - عن المعركة التي بدأت فعلاً - في الوقت المذكور، منذ الصباح الباكر.

وما كنت أستطيع أن أمني نفسي بأي أمل في الانتصار، بعد أن علمت ما علمت من أحوال جيشنا، وشاهدت ما شاهدت من عُدد الجيوش الفرنسية، وما كنت أجد مجالاً للشك في النتيجة الأليمة التي ستنتهي إليها المعركة. ولكني مع هذا كنت أتمنى أن تطول المعركة على قدر الإمكان، وأمني نفسي بمعركة عنيفة تساعد على حفظ شرفنا العسكري على أقل تقدير.

ولكن النتيجة لم تبطئ كثيراً: فقد وردت الأخبار قبل الساعة العاشرة بانكسار الجيش واختراق الجبهة.

وقالوا: يوسف العظمة قتل في ميسلون .

فقلت: بل إنه انتحر هناك !... واستشهد على كل حال.

إن كل ما أمكن جمعه من الجنود والعُدد، وكل ما أمكن ارتجاله من التحصينات، ما كان ليصمد أكثر من بضع ساعات أمام الهجوم العنيف الذي شنَّه الجيش الفرنسي المجهَّز بجميع وسائل القتال من مدافع ثقيلة ودبابات وطيارات....

* * * *

بين دمشق والكسوة

تقرر أن تنتقل الوزارة إلى الكسوة بالقطار، على أن يذهب الملك إليها بالسيارة.

غير أني اقترحت أن نصدر قبل سفرنا بياناً إلى الشعب، نعلن فيه خروج الحكومة من العاصمة، بغية مواصلة الدفاع عن حقوق البلاد واستقلالها، ونال هذا الاقتراح موافقة جميع الزملاء، فكتبنا مسودة البيان، وسلّمناها إلى الديوان، لتبييّضه وإرساله إلى النشر، بعد توقيعه بتوقيع رئيس الوزراء هاشم الأتاسي.

ثم تفرّقنا ليذهب كل منّا إلى داره ويأخذ حقائبه، على أن نعود فنجتمع في محطة الحجاز، استعداداً للرحيل إلى الكسوة في الساعة الواحدة بعد الظهر.

* * *

وصلت المحطة بعد أن أخذت من داري بعض الملابس وبعض الأوراق، ووجدتها غاصة بعدد كبير من الوطنيين الذين كانوا يرون

من الضروري أن يتباعدوا عن دمشق قبل وصول الفرنسيين، وكان بعض هؤلاء في حالة فزع شديد: آذانهم مفتحة لسماع كل حديث، وأذهانهم مستعدة لتصديق كل خب، ومخيّلاتهم ميّالة إلى تكبير كل خطر... وكان من الطبيعي أن تنتشر في هذا الجو المعنوي المتكهرب شتى الشائعات:

هذا يقول إن الفرنسيين بلغوا الغوطة، وأخذوا يتقدمون نحو القدم، وذاك يروي أن أهل الميدان أخذوا يتجمعون، استعداداً لإحراق المحطة ونسف القطار، وآخر يدَّعي أنه لم يبقَ لوصول الفرنسيين إلا برهة من الزمن... وكان يتبع كل شائعة من هذه الشائعات سلسلة طويلة من الاقتراحات، كلها ترمي إلى طلب تعجيل القطار قبل اشتداد الخطر أو فوات الأوان. وقد تعبنا كثيراً لتسكين هذه الأعصاب الهائجة، وتفنيد هذه الشائعات المثيرة، ومنع حركة القطار قبل حلول الميعاد المقرر للسفر.

في هذه الأثناء خطر لي أن أتأكد من مصير البيان الذي قررنا إذاعته على الناس، فعلمت أنه سُلِّم إلى هاشم الأتاسي، فسألت الأتاسي عنه، وعلمت أنه لم يقرأه بعد، فأخرجه من جيبه وصار يقرأه باهتمام...

* * *

عندما قرب موعد السفر كان الوزراء جميعاً قد حضروا إلى المحطة، ما عدا فارس الخوري وعلاء الدين الدروبي. وعلمنا أن فارس الخوري أرسل حقيبته، ولكنه لم يصل بعد، فأخذنا ننتظر وصوله بفارغ الصبر، وأما علاء الدين الدروبي، فلم نعرف عنه شيئاً.

فقد علمنا فيما بعد، أنه كان أخبر رئيس الوزراء بأنه يرى أن بقاءه في دمشق - بصفته وزيراً للداخلية - أوفق للمصلحة من خروجه إلى الكسوة، وأنه بقي متمسكاً برأيه هذا، بالرغم من اعتراض رئيس الوزراء عليه.

وفي الأخير حان وقت السفر، وقمنا لركوب القطار، وعندما هممت بالمشي، رأيت أن أسأل هاشم الأتاسي عما فعل بالبيان، ولكن رأيته يتفجر غضباً، ويصيح بأعلى صوته:

- البيان! البيان! لماذا تلح عليَّ كل هذا الإلحاح؟

لاحظت أن أعصابه كانت قد توترت كثيراً بتأثير الجو المعنوي المكهرب الذي ملأ المحطة، فقلت له بكل هدوء:

- لأنني أعتقد أننا إذا سافرنا من غير أن نصدر هذا البيان، نكون قد انهزمنا من العمل... في حين أننا لا نذهب من هنا فراراً من الواجبات المترتبة علينا، بل لنتمكن من أداء تلك الواجبات بأحسن الوسائل وأكملها.

وعندما كنت أقول ذلك، كان هياج بعض اللاجئين إلى المحطة قد ازداد واشتد إلحاحهم في طلب السفر بدون تأخير، وفي هذا الجو الهائج، ارتبك هاشم الأتاسي ارتباكاً غريباً.. فاضطررت إلى التأكيد عليه قائلاً:

- لا يحق لنا أن نغادر هذا المكان، دون أن نصدر البيان، إذ لا يسوغ لنا أن ننهزم من الميدان في هذه الآونة، بعد أن أخذنا على عاتقنا مسؤولية الحكم حتى الآن..

فهدَّأت كلماتي هذه غضب الأتاسي، واضطرته إلى توقيع البيان. وبعد ذلك أمر بإيصال البيان إلى الدروبي، لضمان نشره بوسائل مختلفة. ولكن علمنا بعد ذلك. أن الدروبي أهمل نشر البيان عن قصد وعمد.

* * *

وصلنا إلى الكسوة، واتخذنا عربات القطار الذي أوصلنا إليها مكتباً ومسكناً. وكان بين تلك العربات صالون خاص، أُعِدَّ ليكون مسكناً للملك فيصل ومكتباً له عند وصوله إلى الكسوة...

وصل الملك فيصل - مع حاشيته - بالسيارات مساء قبل غروب الشمس وقد كان في حالة شاذة، تختلف عن حالاته المعتادة اختلافاً كبيراً. فجميع حركاته وسكناته كانت تدل على أنه في حالة تردد شديد وقلق عظيم. ولاح لي من تتبع هذه الحركات أنه كان مشغول اللب بشيء يميل إلى إخفائه عنا. فقلت لنفسي: «ربما كان لا يزال يأمل في التفاهم مع الفرنسيين، وينتظر ورود بعض الأخبار التي تساعد على تحقيق هذا التفاهم».

وقد تبين لي بعد قليل أن ظني هذا كان مطابقاً للحقيقة والواقع: أنه كان قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين، وأرجأ جميع قراراته إلى حين وصول أخبار هذه المقابلة. ولهذا كان ينتظر هذه الأخبار بفارغ الصبر، ويتجنب التكلم وإبداء الرأي في أي موضوع كان.

أما الأخبار التي كان ينتظرها الملك، فقد وصلتنا بعد مدة في برقية من نوري السعيد يقول فيها:

دولة رئيس الوزراء

الاتفاق مؤقت، هو الحكومة القديمة باقية على أن تعد ما حصل ضد رغائبها السلمية، وتنشر بلاغاً في ذلك. و الإفرنسيون يقيمون في المزة لمدة مؤقتة، ولا يتداخلون بأمر غير إنفاذ المواد الأولية المعلومة. الجنود النظامية تبقى في القدم، ويبقى الدرك والشرطة في داخل البلد. ولأجل حفظ النظام يجوز قلب قطعات نظامية إلى درك. تقرب جلالته من دمشق ضروري. انتظر توكيل تحريري للمفاوضات السياسية. منعت الخروج بعد الساعة ثمانية ليلاً. البلد هادئة تماماً. لا تفتكروا.

نوري السعيد

إن هذه البرقية لم تقنعني قط. ولم يداخلني ريب في أن مضمونها يدل على « عدم اطلاع صاحبها على نوايا الفرنسيين الحقيقية» وعلى «عدم تقديره مبلغ استرسالهم في الخداع والمكر».

ولكن الملك فيصل الذي كان يبحث آنئذ عن «خيط من الأمل» يتمسك به في ظلمة هذا الجو الحالك، تفاءل من البرقية، واسترسل في تفاؤله هذا استرسالاً غريباً.

وقد بلغته في اليوم التالي أخبار شفهية عديدة، شبيهة بمضمون البرقية، فزادت تفاؤله، وحملته على اتخاذ قرار خطير، في سبيل التفاهم مع الفرنسيين: فقرر أن يعهد إلى علاء الدين الدروبي بتأليف وزارة جديدة، وأوفد كبير الأمناء إلى دمشق لمفاوضة الدروبي في هذا الأمر.

إن الوقائع الأخيرة كانت تدل دلالة واضحة على أن علاء الدين الدروبي كان متفاهماً مع الفرنسيين، وإن تخلفه عنا بدمشق، عند خروجنا إلى

الكسوة، كان ناتجاً عن هذا التفاهم السابق. ولذلك ظنّ الملك فيصل أن الدروبي يستطيع تأليف وزارة تضمن التفاهم مع الفرنسيين.

ولقد كنت مدركاً بوضوح أن تفاؤل الملك فيصل لم يكن في موضعه أبداً، وأن هذه التضحية لن تجديه نفعاً. والوقائع أيَّدت ذلك بعد قليل من الزمن.

* * *

أَلَّف علاء الدين الدروبي الوزارة حالاً، وأدخل فيها ثلاثة من أعضاء وزارتنا هم:

فارس الخوري، جلال الدين، ويوسف الحكيم. وضمَّ إليهم أربعة وزراء جدد هم: جميل الألشي، عطا الأيوب، عبد الرحمن اليوسف، بديع المؤيد.

وتسلَّمتْ الوزارة الجديدة مقاليد الحكم، وأخذ الملك فيصل يترقب نتائج تدبيره هذا بفارغ الصبر.

* * *

ولكن نوايا الفرنسيين الحقيقية لم تلبث أن ظهرت إلى العيان – مرة أخرى – في اليوم نفسه: فقد قابل إحسان الجابري – كبير الأمناء – خلال وجوده بدمشق، الماركي «دُباترنو» قنصل إيطاليا العام، وعلم منه أن الفرنسيين قرروا إعلان انتهاء العهد الفيصلي، وأنهم يحاولون أن يدعموا قرارهم هذا «بمضبطة» يتولى تنظيمها أذنابهم، ويقولون فيها «إن البيعة للملك فيصل قد سقطت، بناء على تركه العاصمة وفراره منها».

نقل الماركي هذه الأخبار إلى إحسان الجابري، وقال له إنه يرى من الأوفق لمقتضيات السياسة أن يعود الملك إلى دمشق، ليفسد هذه الدسائس الفرنسية، ويقوي موقفه تجاه المحافل السياسية الأوروبية.

فرأى الملك فيصل أن يستبق الحوادث، ويعود إلى دمشق، عملاً بهذا الاقتراح.

وعاد بنا القطار من الكسوة إلى دمشق.

* * *

وتوالت الوقائع بعد ذلك بسرعة كبيرة:

جمع الجنرال غوابِه - قائد الحملة العسكرية التي احتلت دمشق - رجال الحكومة الجديدة وقرأ عليهم بياناً طويلاً قال فيه: «إن الأمير فيصل جرَّ البلاد إلى مسافة إصبعين من الهلاك، وإن مسؤوليته عن كل ما حدث من الاضطرابات الدموية على مسرح سورية، في الأشهر الأخيرة كبيرة وبديهية إلى درجة لم يعد معها من الممكن استمراره في حكم البلاد».

وعندما اطلع الملك فيصل على ذلك، احتج على هذه التصريحات ببرقية أرسلها إلى الجنرال غورو، قال فيها:

«إني أحتجُّ على التصريح الذي أدلى به قائد حملتكم إلى حكومتي نهار أمس، وأنفي عن نفسي كل مسؤولية أردتم تحميلي إياها. وأعتبر كافة التبليغات أو التعليمات التي سترسلونها إلى حكومتي مباشرة - وعن غير طريقي - لاغية وغير مشروعة أمام عصبة الأمم».

* * *

غير أنه لم يمضِ على إرسال هذا الاحتجاج وقت طويل، حتى جاء الكولونيل (طولا) وسلَّم الملك كتاباً رسمياً باسم الحكومة الفرنسية، يدعوه إلى مغادرة البلاد. وهذا نص الكتاب:

« أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار الحكومة الجمهورية الفرنسية: إنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطيع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم».

«وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً ٢٨ يوليو الساعة الخامسة صباحاً».

ردّ الملك فيصل على هذا التبليغ باحتجاج شديد قال فيه: «إنني لا أعترف للحكومة الفرنسية بأي حق في نزع السلطة التي منحني إياها مؤتمر الصلح رسمياً لإدارة المنطقة الشرقية، ولا في نزع اللقب الذي لقبني به الشعب السوري». كما صرح فيه: « إن دخول الجيوش الفرنسية إلى دمشق، خرق لمقررات مؤتمر السلام، ومخالف لمبادئ جمعية الأمم، ومنافٍ للأخلاق الدولية».

وقد أرسل صوراً عن هذا الاحتجاج المطول إلى جميع الدول.

ومع هذا كان لا بد له من الإذعان لحكم البلاغ، ومغادرة دمشق فعلاً.

* * *

ذهبت إلى محطة الحجاز، وركبت القطار مرة أخرى.

وكنت في هذه المرة مع الملك فيصل، من غير الزملاء. لأن بعض زملائي السابقين كانوا قد دخلوا الوزارة الجديدة، وبعضهم رجَّحوا البقاء في دمشق، ما عدا الشهبندر الذي التحق بنا فيها بعد.

حدث ذلك في أواخر الليل. غير أن السماء كانت حمراء ملتهبة، بسبب الحريق الكبير الذي نشبت نيرانه في المدينة.

وتحرك بنا القطار من المحطة، واجتاز الغوطة، ثم مرَّ بالكسوة، وخربة الغزالة وانتهى بنا إلى درعا.

* * *

في درعا

بقينا في درعا حتى صباح اليوم الأول من شهر آب، واتخذنا القطار مقراً لنا، نجلس ونأكل وننام فيه، كما فعلنا في الكسوة من قبل. غير أننا نصبنا خيمة بالقرب من القطار، ليستقبل الملك فيها شيوخ العشائر ويتذاكر معهم شتى شؤون البلاد.

كانت درعا بمثابة مفترق الطرق، من الوجهتين المادية والمعنوية: فقد كان يلتقي فيها ثلاثة خطوط حديدية، أولهما يأتي من الشمال ويربطها بدمشق، والثاني يتجه نحو الغرب ويربطها بحيفا، والثالث يتجه نحو الجنوب ويربطها بعمان.

وكنا وصلنا إلى درعا من طريق الشمال، فكان على الملك فيصل أن يختار أحد الطريقين الآخرين: طريق الغرب أو طريق الجنوب.

وكان الاختيار بين هذين الطريقين، يعني – في الحقيقة – الاختيار بين خطتين وسياستين.

لأن السفر إلى حيفا كان يعني خروج الملك فيصل من البلاد التي كان يحكمها، ويحتِّم عليه - في الأخير - التباعد عن سورية بأجمعها، ولكنه مقابل ذلك كان يوصله إلى أوروبا، ويفتح أمامه مجال الاتصال بكبار ساستها، ويتيح له الدفاع عن حقوق البلاد أمام مؤتمر الصلح وجمعية الأمم وصحافة العالم.

وأما السفر إلى عمان، فكان يؤدي به إلى القسم الجنوبي من البلاد التي بايعته، ويبقيه متصلاً مع سورية من جهة، ومع الحجاز من جهة أخرى، ولكنه - مقابل ذلك - كان يبعده عن أوروبا، ويعرقل اتصاله بمؤتمر الصلح وجمعية الأمم.

وخلاصة القول: إن الطريق الأول كان بمثابة طريق العمل السياسي والكفاح السلمي، وأما الطريق الثاني فكان بمثابة طريق النشاط الثوروي والكفاح العنيف وكان لكل من هاتين الخطتين محاذير ومحسنات، ومعارضون ودعاة، وبقي الملك فيصل متردداً حائراً بينهما مدة غير قصيرة.

وكان هناك من العوامل ما يزيده حيرة، ويضطره إلى تأجيل القرار: فقد خرج من دمشق، وليس لديه شيء يذكر من المال. فكان عليه لذلك أن يطلب من والده الملك حسين ما يحتاج إليه من مال، وأن يعرف ما يستقر عليه رأي والده في هذه القضايا من جهة، وما سيكون موقف الإنكليز تجاه الحوادث الأخيرة من جهة أخرى.

* * *

ولكن الفرنسيين لم يمهلوا الملك فيصل في درعا طويلاً. فقد تخوَّفوا من حركات عشائر حوران، وأوعزوا إلى علاء الدين الدروبي بكتابة برقية

مستعجلة لتبليغه ضرورة السفر إلى الحجاز. فقد وردت في اليوم التالي لوصولنا أي في ٢٩ تموز ١٩٢٠ - برقية هذا نصها:

«مستعجل لا يجوز تأخيره ولا دقيقة.

إلى متصرف حوران

اعرضوا على جلالة الملك برقيتنا المحررة أدناه وجاوبونا.

إلى جلالة الملك في درعا. إن السلطة الفرنساوية أفادتنا أن يوضع ترين تحت أمر جلالتكم للسفر إلى الحجاز على الطريق الذي تختارونه من طريقي معان وحيفا، بدون توقف في درعا. فأسترحم من جلالتكم حفظاً لبلاد حوران من المصائب والخراب تعجيل حركة جلالتكم مولاي.

٢٩ تموز سنة ١٩٢٠

رئيس الوزراء

علاء الدين

وفي الوقت نفسه حلَّقت طائرة فرنسية فوق درعا ومختلف قرى حوران، وألقت منشورات كثيرة على الأهلين، تدعوهم بها إلى إخراج الملك فيصل من البلاد:

«من الجنرال قائد القوات الفرنساوية إلى أهالي درعا وضواحيها».

« إن الأمير فيصلاً كان قد تلقّى أمراً بأن يترك دمشق ويسافر رأساً إلى بلاده. وقد تعهد بإطاعة هذا الأمر. أما وقد بلغنا على العكس مما تعهّد به أنه بقي في درعا وشرع في مخادعة الأهالي ليدفعهم إلى أعمال سيئة العواقب ومضرة بمصالح البلاد التي لم يبقَ له فيها أقل علاقة، فقد كتب له أن يتابع سفره بلا تأخير.

«فنحن الآن ندعو عموم الأهالي أن يكلفوه بأنفسهم بترك بلادهم حالاً، إذ أن إقامته بينكم تجعل بلادكم هدفاً للقنابل».

«والآن نعطيكم مهلة عشر ساعات، ليتوجه الأمير في ختامها إلى بلاده وإذا مانع في ذلك يجب إرجاع قطاره إلى الشام».

*** * ***

تجاه هذه الأحوال، قرر الملك المسير نحو حيفا. وطلب من الأمير عادل أرسلان أن يتصل بالسر هربرت صموئيل - الذي كان آنئذ مندوباً سامياً بفلسطين - لتهيئة وسائل السفر. وفي الوقت نفسه أوعز إلى كبير الأمناء إحسان الجابري بكتابة برقية جوابية إلى علاء الدين الدروبي.

وقد أشير في هذه البرقية إلى أن «جلالة الملك يقيم في جزء من البلاد التي بايعته» ومع هذا فقد قرر مغادرة درعا في أول آب لأنه «يسعى دائماً إلى إسعاد البلاد، ولا يريد أن يتضرر أحد من أبناء الوطن بسببه».

وقد رد علاء الدين الدروبي بتكرار طلب الفرنسيين، وقد قال في برقيته الجوابية ما نصه:

«مستعجل

درعا. رئيس الأمناء الأفخم

ج. أبلغت ما ذكرتم من اهتمام جلالته بتهدئة الخواطر إلى السلطة الإفرنسية، فأظهروا الشكر على ذلك. وأفادوا إذا تأخر سفر جلالته مع حاشيته عن الوقت الذي عينتموه في برقيتكم، فإن السلطة الإفرنسية تكون حرة في كل عمل سيدي».

٣١ منه. رئيس الوزراء

علاء الدين

وأما الأمير عادل أرسلان فقد أرسل برقية رقمية توصي بالتريُّث، وتسعى إلى توجيه الأنظار نحو الجنوب.

وهذا نص البرقية:

«**رأى هربرت صموئيل تشريف جلالته حيفا عند الحاكم، قد أعطى الأمر باتخاذ التدابير اللازمة أو إحضار صالون خاص من اللّدّ. وبعد ذلك يمكن تشريفه للقدس لمقابلة هربرت صموئيل. حركتهم كأنهم تخلصوا من الأزمة. لذلك أرى عدم التسرع حتى يأتي جواب جعفر الذي وصل إلى مصر اليوم. اعتباراً من عجلون في مأمن من كل تجاوز من طرف الفرنسويين. تأملوا الجملة الأخيرة جيداً. والجواب حالاً. منتظر على الماكنة**».

* * *

إن هذه البرقية كانت تنبئ وتعلم قضيتين مهمتين:

أولاً: إن الإنكليز كان يتمنون توجّه الملك فيصل نحو الغرب. ولهذا السبب قابلوا فكرة مجيئه إلى حيفا بارتياح كبير. ووجدوا في ذلك ما يخفف عنهم شدة الأزمة.

ثانياً: إن القسم الجنوبي من سورية، اعتباراً من عجلون، سيبقى تحت الانتداب البريطاني. وسيكون في مأمن من اعتداءات الفرنسيين. فإذا سافر الملك إلى ما وراء الأردن، يستطيع أن يواصل عمله هناك دون أن يخشى ملاحقة الفرنسيين.

غير أن هذه البرقية لم تبدل شيئاً من اتجاه الملك وقراره.

فتم السفر إلى حيفا في اليوم الأول من شهر آب.

* * *

وهكذا: خرج الملك فيصل من حدود المملكة التي كان يحكمها فعلاً، منذ مدة تناهز السنتين.

وأما بعد ذلك، فقد تضافرت الظروف على تباعد الملك فيصل من سورية بصورة تدريجية...

إن هذه الظروف ستوصله إلى العراق، قبل أن يمضي حول كامل على يوم ميسلون، وستجعله هناك ملكاً مختاراً من الشعب، وستفسح أمامه مجالاً واسعاً لإظهار مواهبه، بتأسيس مملكة جديدة، على أسس قويمة، مستفيداً في ذلك من الخبرة والحنكة الإدارية والسياسية اللتين اكتسبهما في سورية وفي أوروبا قبل يوم ميسلون، وبعد يوم ميسلون.



نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية
حتى الحرب العالمية الأولى

-١-

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى، كانت العلاقات التركية العربية تجتاز مرحلة انتقال محفوفة بالحيرة والتردد.

في الواقع إن الاتفاقية التي عُقِدت بين هيئة الاتحاد والترقي وبين هيئة الشبيبة العربية كانت قررت مواد إصلاحية هامة، كما شرحت ذلك في المحاضرة السابقة.

وهذه المواد، كانت تقوم على المبادئ الأساسية التالية:

(أ) جعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع مدارس الولايات العربية.

(ب) إصلاح إدارة الولايات العربية وفق ما يقتضيه نظام اللامركزية.

(ج) إشراك العرب في حكم المملكة إشراكاً فعلياً بتخصيص عدد من المناصب لهم في الدوائر المركزية القائمة في العاصمة.

إلا أن تنفيذ أحكام الاتفاقية، وتطبيق المبادئ المذكورة، سارا ببطء شديد: فعندما نشبت الحرب العالمية كان ما تم تنفيذه وتطبيقه منها لا يزال ضئيلاً جداً.

والسبب في ذلك يعود في الدرجة الأولى إلى اختلاف ساسة الأتراك أنفسهم في هذه القضايا، وعدم اطمئنان الكثيرين منهم على نظام اللامركزية.

في الواقع إن جماعة منهم كانت آمنت بضرورة تغير الأوضاع إلى أساس الإدارة اللامركزية، حتى أن بعضهم. صار يقول بوجوب جعل الدولة ثنائية، لكي تصبح «تركية – عربية» أسوة بإمبراطورية «النمسا والمجر». غير أن كثيرين منهم كانوا بقوا - بعكس ذلك - متمسكين بمذهبهم الأصلي، مستسلمين إلى نزعتهم القديمة، معتقدين بضرورة الاستمرار على حكم البلاد العربية، بالقوة والقسر.

ولهذه الأسباب، لم تظهر الحكومة في تنفيذ المبادئ المتَّفق عليها النشاط الضروري لكل حركة إصلاحية جدية، وصارت تماطل وتسوِّف، ولا تغير الأوضاع إلا شيئاً فشيئاً وببطء كبير جداً.

ولا حاجة إلى القول، إن مشاريع الإصلاحات التي كانت قد سارت سيراً بطيئاً قبل نشوب الحرب العالمية، توقفت بالكلية بعد بدء التعبئة العامة ولاسيما بعد إعلان الحرب بصورة رسمية.

لأن الإدارة تتمركز خلال الحروب، حتى في البلاد التي تسير على نظام اللامركزية، فما كان ينتظر من الحكومة العثمانية أن تندفع في طريق الإصلاحات اللامركزية وقت الحرب، بعد أن كانت تتباطأ وتتلكأ فيه وقت السلم.

فبقيت الأمور في جميع الولايات العربية على حالتها السابقة من المركزية، بل أنها أصبحت أشد مركزية من ذي قبل، بسبب إعلان «الأحكام العرفية»، وقيام الإدارات العسكرية تمشياً مع الضرورات الحربية.

ومع هذا، فإن الرأي العام العربي تلقّى هذه الأوضاع برحابة صدر، ولم يُظهر نحوها شيئاً من السخط. وذلك لأن الحاجات الجديدة التي تجابه الناس من جراء قيام حالة الحرب من ناحية، والحماس الوطني العام الذي يلهب الصدور في مثل هذه الأحوال من ناحية أخرى... كان يصرف أنظار الناس واهتمامهم عن قضايا المركزية واللامركزية، وعما يتصل بذلك من حقوق ومطالب:

غير أن.. تصرفات الحكومة في الشؤون العربية، لم تتوقف عند حد «تأجيل الإصلاحات التي كان تم الاتفاق عليها سابقاً» بل تعدت ذلك إلى «الانتقام من زعماء الحركة التي آلت إلى ذلك الاتفاق»، وذلك بغية نسف فكرة الإصلاحات من أساسها.

وكان من الطبيعي أن تثير هذه التصرفات الجديدة كوامن النفوس، وأن تدفع الناس- في آخر الأمر- إلى الثورة دفعاً.

إني لن أتتبع هنا، صفحات تاريخ الثورة العربية بتفاصيلها بل سأكتفي بذكر الوقائع الأساسية التي لعبت دوراً هاماً فيها، وذلك لإظهار التيارات الفكرية التي أثارتها ورافقتها، وغذَّتها.

* * *

إن الخطة الحربية التي كانت وضعتها القيادة العامة العثمانية - بالاتفاق مع الألمان - كانت تقضي بالهجوم على الأعداء من ناحيتين: على

الروس من ناحية قافقاسيا، وعلى الإنجليز من ناحية صحراء سينا وقنال السويس.

كان الهجوم على قافقاسيا يستلزم تعبئة الجيوش وتحشيدها في الجهات الشمالية الشرقية من الأناضول، في نواحي أرض روم. ومعلوم أن هذه الجبهة كانت خارجة عن البلاد العربية، وبعيدة عنها، وما كان ينتظر أن يكون لهذه الجبهة، تأثير في شؤون البلاد العربية، إلا أن القيادة العامة رأت أن ترسل الجنود العراقية إلى الجبهة المذكورة، مع أن العراق وأرض روم كانا يؤلفان قطبين متعاكسين من حيث المناخ في البلاد العثمانية؛ إذ بقدر ما كان العراق مشتهراً بالحر، كانت أرض روم مشتهرة بالبرد، وبقدر ما كان العراق مسرحاً لعواصف رملية لاهبة كانت أرض روم مسرحاً لعواصف ثلجية مجمدة. ولهذا السبب مات كثير من الجنود العراقيين في جبهة قافقاسيا، من شدة البرد، قبل أن يدخلوا ساحات القتال.

وهذه الأحوال صارت مثاراً لكثير من الانتقادات والتذمرات: اتهم البعض القيادة العامة بعدم التبصُّر، ولكن البعض استبعد أن يبلغ بها عدم التبصر إلى هذا الحد، وصار يعزو الأمر إلى سوء النية.

ولكن هذه الخطة آلت إلى نتيجة أخرى أيضاً، أنها تركت العراق محروماً من حامية قومية، ولذلك، عندما أرسل الإنجليز - من الهند - جيشاً لامتلاك البصرة، استطاع الجيش المذكور، أن يحتل جنوب العراق بسهولة، ثم صار يتقدم نحو الشمال شيئاً فشيئاً، بسرعة نسبية.

وأما جبهة القنال، فكانت ذات علاقة مباشرة مع البلاد العربية، لأنها كانت تستلزم حشد الجيوش وتعبئتها في سوريا وفلسطين، وكانت تتطلب

اجتياز صحراء النقب مع شبه جزيرة سينا، وكانت تهدف إلى فتح مصر، وطرد الإنجليز منها.

أخذت القيادة العامة العثمانية تحشد الجيوش في سوريا لهذا الغرض، وعهدت بقيادة هذه الجبهة إلى وزير البحرية جمال باشا، وزودته بصلاحيات «فوق العادة» تكاد تكون مطلقة، في جميع الشؤون العسكرية والإدارية والمالية.

كان جمال باشا هذا أحد «الثلاثة» الذين يسيطرون على شؤون الدولة والحزب سيطرة تامة، وكان نجمه سطع بوجه خاص، عندما تولى زمام محافظة العاصمة، ولعب دوراً هاماً في إسقاط حكومة «الحرية والائتلاف»، وفي القضاء على مؤامرات المعارضين عقب مقتل محمود شوكة باشا. وكان معروفاً في الوقت نفسه بميوله التورانية. لأنه كان وثيق الاتصال بدعاة القومية التركية، وكثير التشجيع لنواديها.

وإذا كانت مقدرته الإدارية والعسكرية تجعله من أجدر الناس بتولي هذه المهمة الخطيرة.. إلا أن نزعته التورانية كانت تجعله - بعكس ذلك - من أخطر الرجال على إدامة العلائق الحسنة بين الأتراك وبين العرب.

وفي الواقع أنه سار في بادئ الأمر، على سياسة «استمالة القلوب» و«جمع الكلمة».. أخذ يتكلم ويخطب في روابط الأخوة التي تربط الأتراك والعرب، ويستحثّ همم الجميع لخدمة «الغاية المقدسة» التي تسعى إلى تحقيقها الحكومة بواسطة الجيش، غير أنه بعد مرور نحو سنة من الزمن، التزم سياسة الإرهاب، فأخذ يعتقل، ويحاكم، وينفي، ويشنق الكثيرين من منوري العرب.

إن الاعتقالات الأولى لم تثر هواجس القوميين كثيراً، لأنهم كانوا يقولون فيما بينهم «قد يكون هناك ما يبرر الاعتقال» ولكن!! عندما توسعت دائرة الاعتقالات، وصارت تشمل بعض الرجال المعروفين بإخلاصهم القومي وحماسهم الوطني.. ولاسيما عندما وصلت إلى رجال الحركة الإصلاحية أنفسهم.. صار الكل يعتقدون أن هذه الإجراءات إنما هي حركات اعتسافية، يقصد منها الانتقام والإرهاب.

وقد استمر جمال باشا في هذه الأعمال الإرهابية، دون أن يلتفت لا إلى الملاحظات التي أبداها بعض رجال الدولة، ولا إلى النصائح التي أسداها «الشريف حسين».

من المؤكد أن الشريف حسين - الذي كان عندئذ أمير مكة المكرمة - أوفد إلى جمال باشا ابنه فيصل - الذي كان عندئذ نائباً عن الحجاز في مجلس المبعوثان العثماني - ليلتمس منه الكف عن سياسة الإرهاب والإعدام. ولكن جمال باشا لم يعبأ بذلك أبداً.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد: أن عبد الحميد الزهراوي - الذي ترأس المؤتمر العربي المنعقد في باريس، والذي عُيّن بعد ذلك في عضوية مجلس الأعيان - كان من جملة الذين أُعدموا شنقاً بقرار الديوان العرفي.

وكذلك عبد الكريم الخليل - الذي كان وقّع على الاتفاقية التي شرحتها في المحاضرة الماضية باسم الشبيبة العربية، والذي أدب المأدبة المشهورة على شرف أعضاء المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي، بمناسبة تلك الاتفاقية - هو أيضاً كان ممن لقوا حتفهم على أعواد المشانق !

هذا وقد رأى جمال باشا أن يدافع عن أعماله بنشر الوثائق المتعلقة بهذه القضايا. فأصدر كتاباً باللغتين العربية والتركية، ضمنه الوثائق التي استند إليها الديوان العرفي في قراراته، مع ذكر الجرائم التي أُدين بها كل واحد من المحكوم عليهم. وكان عنوان الكتاب - في ترجمته الغربية - ما يلي: «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكّل بعاليه».

ولما كانت اعتسافات جمال باشا لعبت دوراً هاماً في قيام الثورة العربية، يجدر بنا أن نتوسع قليلاً في درس الوثائق التي يتضمنها هذا الكتاب الرسمي:

إن أهم الوثائق التي استند إليها ديوان الحرب العرفي في أحكامه، كانت الأوراق التي عُثر عليها في دار القنصلية الفرنسية ببيروت.

لأن القنصل عندما غادر بيروت عقب إعلان الحرب، لم ينقل أو يتلف الأوراق السياسية المحفوظة بالقنصلية، بل تركها هناك، والسلطات العسكرية العثمانية رأت أن تضع يدها على البناية واستولت على الأوراق التي وجدتها هناك، ثم ألَّفت لجنة خاصة لدرس تلك الأوراق. واللجنة عثرت بينها على وثائق سياسية هامة جداً: صور المخابرات التي جرت بين السفارة الفرنسية في الآستانة، حول سياسة فرنسا في سوريا.. بلاغات واردة من وزارة الخارجية الفرنسية، وتقارير مقدمة إليها... صور المحادثات التي جرت في السفارة أو في القنصلية مع بعض رجال السياسة، تعليمات توجيهية تبين الخطط الأساسية التي يجب اتباعها عند مقابلة الأهلين أو الموظفين...

وكانت إحدى الوثائق تلخّص الحديث الذي جرى بين الكبير الفرنسي وبين شفيق المؤيد. وكان هذا الحديث مما يدين الرجل إدانة خطيرة، واستند ديوان الحرب العرفي في حكمه على الرجل - بحق - على هذه الوثيقة.

ولكنه لم يكتفِ بذلك، بل شمل الإدانة سائر أعضاء «حزب اللامركزية»، لأنه علم بأن شفيق المؤيد كان منتسباً إلى الحزب المذكور. وبتعبير آخر: اعتبر الديوان العرفي الوثيقة المذكورة كافية،لاتهام الحزب بالتآمر على الدولة خدمة لمصالح فرنسا.

في حين أنه يوجد بين الوثائق المنشورة في موضع آخر من الكتاب إشارات صريحة إلى أن زعماء الحزب كانوا يشتبهون بِـ شفيق المؤيد، ولذلك بذلوا جهداً كبيراً للحيلولة دون دخوله المؤتمر، وتوفقوا في ما سعوا إليه، وفعلاً !! لم يدخل الرجل المؤتمر.

ولذلك، فإن اعتبار الحزب مسؤولاً عن العمل الذي أتى به شفيق المؤيد من تلقاء نفسه، كان مما لا يتفق مع أبسط قواعد المنطق والعدل.

هذا، ويذكر الكتاب الجرائم التي حُكِم بها على عبد الحميد الزهراوي بقوله: «كان منتسباً لحزب اللامركزية، حتى أنه استأذن الحزب برقياً قبل أن يقبل منصب عضوية مجلس الأعيان». ثم يضيف إلى ذلك: «كأن السلطة التي أنعمت عليه بذلك المنصب لم تكن الحكومة السنية، بل كان حزب اللامركزية».

في حين أن الاستئذان الذي يشير إليه الكتاب، كان مفروضاً بمقررات المؤتمر العربي الأول. وهذه المقررات كانت أُبلغت إلى الحكومة في حينها..

هذا، ومن المعلوم أن مقررات المؤتمر كانت صارت أساساً لمفاوضات جرت بين مندوب الاتحاد والترقي وبين رجال الإصلاح، والاتفاقية التي عقدت بين معتمد الشبيبة العربية وبين رئيس جمعية الاتحاد والترقي كانت من ثمرات تلك المفاوضات، وأما تكليف عبد الحميد الزهراوي بعضوية مجلس الأعيان، فكان جرى تنفيذاً لإحدى مواد الاتفاقية التي نصت على تعيين أعضاء من العرب في مجلس الأعيان، بنسبة عضوين عن كل ولاية عربية. كما أن استئذان المشار إليه من حزبه في هذا الأمر أيضاً، كان مما تقتضيه مقررات المؤتمر التي تم الاتفاق حولها، والحكم على الرجل بناء على أمور كان تم الاتفاق عليها قبلاً، إن دل على شيء، فإنما يدل على إنكار الاتفاق، وإنزال العقاب بأحد طرفي الاتفاق.

ولا حاجة إلى القول: إن هذه الأفعال أزالت من نفوس متنوري العرب الثقة بوعود الأتراك. حتى الذين كانوا من أشد دعاة التفاهم صاروا يسلِّمون بأنه لا سبيل إلى تفاهم جدي، ما دام الأتراك ينقضون اليوم، ما كانوا أبرموه أمس، وما دام أنهم يتفقون عند الحرج، ويعودون إلى سيرتهم الأولى بعد زوال الحرج.

كل هذه الأحداث، كانت تحمل المتنورين على التفكير في الأمور بجدٍ واهتمام.. هل يجوز لنا أن نبقى مكتوفي الأيدي، تجاه هذه السياسة الإرهابية؟

إنهم كثيراً ما كانوا يقولون: لا بد من أن تنتهي الحرب بانتصار أحد الطرفين، وإذا انتصرت الدول المتحالفة استولت جيوشها على بلادنا، وسينسحب الأتراك منها، وسنبقى تحت رحمة المستولين، لكوننا محرومين من كل أنواع التشكيلات الإدارية والاجتماعية والقومية التي تحفظ كياننا.

وأما إذا انتصر الأتراك، فسيفعلون بنا أضعاف ما كانوا يفعلونه قبلاً، وسيسترسلون في سياسة التبريك، فيحرموننا من حقوقنا القومية، ويسعون للقضاء على قومتينا. فلا بد لنا من القيام بتشكيلات قومية تضمن لنا الحياة، بين هذين الخطرين الداهمين...

هذه كانت أهمّ وأعمّ الآراء التي صارت تجول في خواطر متنوري العرب.. بعد بدء الإجراءات الإرهابية التي أخذ يقوم بها جمال باشا.

ولا حاجة إلى القول، إن أمثال هذه الآراء والملاحظات، صارت تدفع المتنورين القوميين إلى تنشيط الجمعيات السرية وتوسيعها.

ونستطيع أن نقول، لذلك: إن الثورة العربية التي أعلنها الملك حسين – في أواخر السنة الثانية من الحرب في ١٠ حزيران ١٩١٦ – جاءت موافقة لآراء متنوري العرب ورغباتهم تمام الموافقة.

ولذلك انضم إلى الثورة عدد كبير من المنورين، بين ضباط وملكيين، من مختلف الأقطار العربية.

-٢-

وهذه الثورة التي بدأت من مكة المكرمة، تحت زعامة أمير مكة، لم تكن ثورة حجازية، بل كانت ثورة عربية بكل معنى الكلمة، إنها كانت ترمي إلى استقلال الولايات العربية بأجمعها وكانت تصبو إلى تكوين دولة عربية جديدة موحدة، تنهض بالأمة نهضة حقيقية تعيد إليها مجدها السالف.

وكانت الراية التي قررها رجال الثورة ترمز إلى هذه النزعة السامية بكل وضوح وجلاء: لأنها جمعت الألوان الأربعة التي كان كل واحد منها شعاراً لعهد من عهود «دولة العرب» في إبان سؤددها الغابر.

ولذلك اشترك في الثورة وقام بأعبائها، رجال من مختلف الأقطار العربية فكان بينهم السوري والعراقي واللبناني والحجازي والفلسطيني، كما كان بينهم المسلم والمسيحي.

وأما بدء الثورة من الحجاز، فكان نتيجة طبيعية لعوامل عديدة، تتصل كلها بالأحوال الجغرافية والاقتصادية والتاريخية، ما كان من المعقول أن تبدأ الثورة من سوريا مثلاً... لأن **سوريا** كانت متصلة بسائر أقسام المملكة العثمانية بالسكك الحديدية، كما أنها كانت مقر جيش أساسي من قديم، وأصبحت مركز احتشاد قوي كبير منذ بداية الحرب. فكان من السهل على الحكومة أن تتغلب بسرعة عظيمة على كل ثورة قد تقوم هناك..

وأما **الحجاز**، فكان في وضع يختلف عن ذلك اختلافاً كلياً، لأنه كان بعيداً عن مراكز احتشاد الجيوش وعن طرق المواصلات الأساسية، زد على ذلك، أن الحجاز كان مأهولاً بعشائر مسلحة، اعتادت القتال منذ أجيال، وذلك كان مما يسهل حملها على الثورة، وسوقها إلى الحرب.

ثم إن إمارة **مكة المكرمة**، كانت تتمتع بمركز تاريخي مهم، تجعلها صالحة لإثارة الثورة وقيادتها. وعلى الخصوص، فإن الأمير الأخير - الشريف حسين باشا - نفسه كان قد اكتسب شخصياً نفوذاً كبيراً خلال إمارته الطويلة، لأنه لم يترك فرصة تمر دون أن يستفيد منها لتقوية الإمارة

تجاه سلطة الولاية.. وكل هذا كان يجعله أقدر وأكفأ الرجال على تزعّم الثورة بصورة معنوية.

هذه العوامل المختلفة هي التي اقتضت بدء الثورة من الحجاز.

ولكن جيوش الثورة التي أخذت تتكون لهذه الأسباب في الحجاز، لم تبقَ معتكفة على نفسها هناك، بل إنها أخذت تتقدم نحو الشمال، مرحلة مرحلة، إلى أن تمكنت من دخول دمشق، ومن التقدم إلى ما وراء دمشق، لتعقيب الجيوش التركية حتى حلب وما وراء حلب.

إن وصول جيوش الثورة إلى دمشق قوبل في جميع أنحاء سوريا بحماس منقطع النظير، وصارت المدن السورية ترفع الأعلام العربية، وتعلن انضمامها إلى الثورة، وانصياعها لأوامر القيادة العربية، حتى قبل أن تصل إليها كتيبة من كتائب الجيش العربي الذي كان يسير تحت لواء فيصل بن الحسين.

وحتى المدن اللبنانية نفسها قد اشتركت في هذه الحركة، ورفعت الرايات العربية على الدوائر الحكومية والدور الخصوصية، والقيادة العربية التي لم تحتج إلى شيء غير إيفاد ضابط أو ضابطين مع نَفَرٍ قليل من الجنود إلى المدن المهمة، بغية تنظيم الحركة فيها..

تكوَّنت الحكومة العربية في سوريا في هذا الجو من الحماس القومي الشديد، وعملت كثيراً لتغذية هذا الحماس وتقويته.

استمر الحماس واستعر من دون عائق مدة سنتين، اختمرت خلالها فكرة القومية العربية، واكتسبت قوة عظيمة، وانتشرت انتشاراً كبيراً.

وتولَّدت في النفوس من جراء ذلك كله «وطنية عربية» صريحة، متحررة من قيود نزعة «العثمانية الإسلامية» التي كانت تأخذ بخناق فكرة

القومية العربية، وتحول دون تبلورها وتشكُّلها بأشكال واضحة، وتمنعها عن الانطلاق والاندفاع.

في الواقع إن المقررات التي اتخذها الحلفاء في مؤتمر سان ريمو بشأن الانتدابات والإجراءات العسكرية التي أعقبت تلك المقررات.. أنزلت على فكرة القومية العربية ضربات قاسية، ولكنها لم تستطع القضاء عليها، بل إن الفكرة حافظت على حيويتها، على الرغم من الصدمات التي تلقتها، وصارت الدافع الأصلي لروح المقاومة القومية التي تجلت في سلسلة الثورات التي قامت في سوريا والعراق وفلسطين.

* * *

ومما يجدر ذكره في هذا المضمار، أن فكرة (الرابطة العثمانية الإسلامية) عادت إلى الظهور في بعض المحافل، بعد انقراض الحكومة العربية في سوريا، لأن جماعة من الذين كانوا يعارضون فكرة القومية العربية ويروجون السياسة التركية، صاروا يقولون: «هذه هي نتيجة الثورة على الدولة العثمانية، لو لم تقم الثورة لما أتى الاحتلال»، غير أن هذه الآراء كانت ظاهرة البطلان، ولذلك لم يتعب القوميون في تفنيدها بحجج قوية.

استولت إنجلترا على نصف العراق قبل قيام الثورة في الحجاز، وأتمت احتلال العراق بأجمعه بعد ذلك، دون أن تستعين بالثورة، وأما احتلال سوريا من قبل الجيوش الفرنسية، فقد تمَّ - في حقيقة الأمر - تنفيذاً لاتفاقات دولية سابقة، بناء على انتصار الحلفاء على ألمانيا ومتفقيها، فلا يحق لأحد أن يدَّعي أن الثورة هي التي سببت الاحتلال، بل بعكس ذلك يحق لنا أن نقول: إن الثورة هي التي أجلت الاحتلال طول هذه المدة، ويجب أن

نلاحظ في الوقت نفسه أن خلال هذه المدة بذرت الثورة في النفوس كثيراً من البذور التي تحمل في طياتها أسباب التخلص من الاحتلال في مستقبل الأيام. ولو لم تقم الثورة لأصبحت حالة البلاد العربية أسوأ بكثير مما هي عليه الآن.. وأما مثل هؤلاء الذين يدعون الآن إلى الندم على الثورة كمثل من يغادر داراً آيلة للسقوط، ثم عندما يتعرض إلى عاصفة هوجاء، يقول: «باليتني كنت باقياً في الدار»، غافلاً من أن الدار نفسها تهدَّمت من جرَّاء تلك العاصفة، وأنه لو بقى فيها لعرض نفسه إلى أخطار أشد وأعظم من التي يجابها الآن..

إن هذه القضايا صارت مدة من الزمن، موضوع أحاديث ومناقشات في بعض المحافل الفكرية والسياسية.

وأنا شخصياً، كنت دوَّنت رأيي في هذا الموضوع سنة ١٩٢٠ في رسالة وجهتها إلى رئيس تحرير إحدى الجرائد التركية المشهورة، رداً على مدّعياته. وأرى من المفيد أن أنقل هنا بعض الفقرات من الرسالة المذكورة، لكي أعطي فكرة واضحة عن المسائل التي كانت تجول في الخواطر، عقب استيلاء الفرنسيين على سوريا، بعد يوم ميسلون:

«هل يستطيع أحد أن يقول: لولا ثورة الحجاز، لما انتصر الفرنسيون والإنكليز على الألمان، ولما استطاعوا أن يستولوا على هذه البلاد الإسلامية؟ أنا لا أشك في أنه لا يمكن لأحد أن يدَّعي ذلك عن طريق الجد».

«ولقد قال جمال باشا في إحدى خطبه: أننا كدنا نستولي على مصر، غير أن خيانة الشريف حسين منعتنا عن ذلك، ولكن تلك الخطبة كانت من

الخطب السياسية التي تستهدف خداع الرأي العام أثناء الحرب، ولا أظن أن أحداً يستطيع أن يحمل ما جاء فيها من المدَّعيات على محمل الجد.

«لأن ظروف الحرب كانت قد ربطت مقدرات الدولة العثمانية – ومقدرات البلاد الإسلامية التي تسير من ورائها – بمقدرات ألمانيا، فكيف كان يمكن أن تؤثر حركة الملك حسين، والحالة هذه، في النتيجة النهائية، بين هذه القوى الهائلة التي كانت تصطدم في ميادين هذه الحرب العالمية؟ هل كان يمكن أن يتغير اتجاه الحرب، من جراء نشوب الثورة في الحجاز، أو عدم نشوبها؟ وهل كان ممكن أن تكون لهذه الثورة من القوة والتأثير ما يؤدي إلى انتصار ألمانيا وانكسارها؟

«أعتقد أن الثورة العربية، ما كان يمكن أن تؤثر تأثيراً يستطيع أن يغير مجرى الحرب، فينزع النصر من أحد الطرفين ليأخذه الآخر.

«إن انكسار الألمان واستسلامهم كان من الأمور المتحتمة، نظراً إلى سير الوقائع العالمية، سواء أقامت الثورة في الحجاز أم لم تقم، كما أن استسلام الدولة العثمانية أيضاً كان من النتائج التي لا بد من أن تلي انهيار القوى الألمانية، سواء أثار عليها الشريف أم بقي موالياً لها.

إني أعتقد أن هذه الأمور من الحقائق التي ليس لإنكارها من سبيل.

وإنه ليجدر بنا بعد تقرير هذه الحقيقة، على هذه الصورة أن نتساءل: هل كان من الممكن أن تبقى سوريا مصونة من الاحتلال، بعد انتصار الدول المتحالفة، واستسلام الدولة العثمانية والجيوش الألمانية، في جميع الجبهات؟

إن الاحتلال العسكري الذي منيت به مدن وبلاد كثيرة مثل أدرنة وبروسة وأزمير، بالرغم من بعدها عن ساحات القتال، لا يترك لنا مجالاً لأي شك كان في الجواب عن هذا السؤال: كلا، إن سوريا ما كان يمكن أن تبقى مصونة عن الاحتلال، بعد انتصار الحلفاء، حتى ولو لم تقم أية ثورة في الحجاز.

ومما يؤيد حكمي هذا، أن أنور باشا كان قد خطب في المجلس النيابي العثماني، على أثر القلق الذي أظهره بعض النواب من تقدم الإنكليز في العراق، وقال ما معناه:

أيها السادة، يجب أن نواجه الحقائق وجهاً لوجه، إننا ربطنا مقدراتنا بمقدرات الألمان. فإذا انتصر الألمان خرجنا من الحرب سالمين، حتى ولو كنا أضعنا بعض أقسام بلادنا خلال الحرب، لأن ألمانيا عندما تنتصر تعيد إلينا جميع تلك البلاد. أما إذا خرجت من الحرب مغلوبة على أمرها - معاذ الله - فإننا نخسر كل شيء، حتى ولو بقيت بلادنا مصونة من كل احتلال.

إن ما قاله أنور باشا آنئذ عن جميع البلاد العثمانية، يصح بوجه خاص أن يقال في شأن سوريا، إن مقدرات سوريا كانت ارتبطت بمقدرات الحرب العالمية، فما كان يمكن أن تبقى سوريا مصونة من الاحتلال، بعد انكسار الألمان واستسلام الدولة العثمانية.

لكني أرى أن أخطو بضع خطوات أخرى في سبيل الفرضيات، ماذا كان يحلُّ بسوريا لو لم تقم الثورة العربية ولو لم تدخلها جيوش تلك الثورة؟

« **لا شك في أن عدم قيام الثورة ما كان يؤثر في اتجاه الحرب ونتائجها تأثيراً يذكر، ولكنه كان يؤثر - حتماً - في أحوال البلاد السورية تأثيراً كبيراً، فإن الجيوش الأجنبية التي أقدمت على احتلال سوريا بعد الحرب، ما كانت**

وجدت أمامها المقاومة التي وجدتها إلى الآن، ولما جابهت الحكومة الوطنية التي تولدت من الثورة، ولما اصطدمت بفكرة الحرية والاستقلال التي تغلغلت في نفوس الشعب بفضل هذه الثورة، ولاستطاعت لذلك أن تحتل البلاد وتحكمها بسرعة وبسهولة، ولما وجدت نفسها مضطرة إلى بذل الجهود لاستئصال البذور التي زرعتها الثورة العربية ولإزالة الآثار التي تركها الاستقلال الموقت في نفوس الشعب. وإذاً لكانت أحوال سوريا وسائر البلاد العربية أسوأ بكثير مما هي عليه الآن»...

(يوم ميسلون ص ١٧٣ - ١٧٥).

ولذلك كله، إن الدعايات التي قامت في تلك الأيام ضد الثورة العربية باسم «الرابطة العثمانية الإسلامية»،لم تجد كثيراً من المريدين، ولاسيما فإن الحوادث التي توالت على تركيا نفسها لم تترك مجالاً لانتشار أمثال هذه الدعايات، لأن تركيا نفسها نبذت السلطنة، فألغت الخلافة، وأصبحت «تركيا، قومية» بكل معنى الكلمة.

ولهذا السبب نستطيع أن نقول: إن فكرة القومية العربية تخلصت من تأثيرات «الرابطة العثمانية» بصورة نهائية، قبل أن يمضي على معاهدات الصلح مدة تستحق الذكر.

ولكن فكرة «القومية» تعرضت بعد ذلك إلى أخطار جديدة هي التي تولدت من تقسيم البلاد العربية إلى دول عديدة، ومن قيام نزعات الإقليمية من جراء هذا التقسيم، وأستطيع أن أقول: إن هذه الأخطار الجديدة، فتحت في تاريخ «نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية»، فصلاً جديداً، لما ينتهِ بعد.

-٣-

إن الثورة العربية كانت قامت – كما ذكرت ذلك قبلاً – بغية ضمان استقلال الولايات العربية بأجمعها، وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة.

ولكن معاهدات الصلح ومقررات الانتداب قضت على هذا الأمل، وقسمت الولايات العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية إلى سبع وحدات سياسية: إحداهما تحت حكم أجنبي محض، واثنتان منها مستقلتان استقلالاً تاماً، والأربع الباقية، تحت إدارات وطنية مقيدة بقيود الانتداب.

إن قيام هذه الدول العربية بهذه الصورة صار سبباً لتوليد «نزعات إقليمية» مرتبطة بكل دولة من هذه الدول. وهذه النزعات الإقليمية أخذت تعاكس فكرة «القومية العربية» وتعرقل سيرها،بل تحاول – في بعض الأحيان وفي بعض الجهات – القضاء عليها.

وتوالت الأحداث، بعضها يقوي النزعات الإقليمية الخاصة، وبعضها يغذي الفكرة القومية العامة، والتنازع الذي قام بين هذه العوامل المتعارضة والمتعاكسة، لا يزال مستمراً حتى الآن.

ولكي نفهم سير هذه الأمور حق الفهم، يجدر بنا أن ندرس كل نوع من نوعي هذه العوامل على حده، ونتتبع صفحات تطورها منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى.

ويجب علينا أن نلاحظ أولاً أن النزعة الإقليمية تتمسك بالأمر الواقع، وأما الفكرة القومية، فتنزع إلى الأمل المنشود.

النزعة الإقليمية ترتبط بالحدود المرسومة، وتسعى لتحكيم هذه الحدود وتقويتها بمختلف الصور والأساليب، في حين أن الفكرة القومية تعتبر هذه الحدود موقوتة ومحدودة، وتشجع التيارات التي تجتاز بل تكتسح هذه الحدود.

وكل واحدة من هاتين النزعتين تستمد قوة من بعض الحوادث والأمور الأخرى.

والنزعة الإقليمية تكون أشد تأثيراً في سواد الناس، وأكثر موافقة لمصالح النفعيين. لأن للدولة معالم مشهودة وملموسة، وسلطة فعلية لها عَلَم خاص يراه الناس، شرطة خاصة، وجيش خاص، وأوراق هوية وجوازات سفر خاصة، وحكومة خاصة مع نقودها الخاصة ومجالسها الخاصة. في حين أن فكرة القومية - عند تعدد الدول - تكون محرومة من أمثال هذه المعالم المادية، لأنها تبقى أمام هذه الدول، بمثابة نزعة معنوية تجول في الخواطر وتختلج في الصدور.

ثم إن الدولة تسن القوانين وتنظم الاقتصاد وتوجه الثقافة. ولذلك إن تعدد الدول واختلافها يؤدي بطبيعة الحال إلى شيء كثير أو قليل من التباعد بين الشعوب التابعة لها، على الرغم من وحدة الأمة التي تنتسب إليها.

وكل هذا قد حدث فعلاً في البلاد العربية، بعد انقسامها إلى دول عديدة، كل واحدة منها نشأت تحت شروط تختلف عن شروط نشأة غيرها، بعضها دخلت تحت انتداب دولة تختلف عن الدولة التي انتدبت على شقيقاتها، تحت شروط تختلف عن شروط الانتداب التي فرضت على غيرها. ولذلك أخذت الشعوب التابعة لهذه الدول تختلف وتتباعد بعضها

عن بعض، من حيث التنظيمات والتشكيلات الإدارية والقضائية والاقتصادية والثقافية التي تخضع لأحكامها.

هذا، وقد تكون في كل دولة طائفة من الزعماء والحكام والسَّاسة الذين أصبحوا مرتبطين بالأوضاع القائمة، وصاروا يدعون إلى إبقاء ما كان على ما كان، ويسعون للحيلولة دون تغير الأحوال الراهنة.

وقد انضم إلى هذه العوامل الداخلية، بعض العوامل الخارجية أيضاً: فإن الدول المحتلة والمنتدبة، لا ترتاح بوجه عام إلى تكتل الشعوب العربية. فهي ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والتخالف بين هذه الشعوب، بل يتفاقم ويتأيد، ولذلك تبذل كل ما في استطاعتها للحيلولة دون انتشار فكرة القومية العربية.

وقد اهتمت بذلك فرنسا بوجه خاص اهتماماً كبيراً جداً، وحاربت فكرة القومية العربية، بكل وسائل الدعاية الخداعة: «إن السوريين ليسوا بعرب، ولو كانت لغتهم عربية.. واللبنانيون يختلفون عن العرب وعن السوريين في وقت واحد، إنهم فينيقيون. ولاسيما المسيحيون منهم، من أبعد الناس عن العرب والعروبة، لأنهم من أحفاد الصليبيين الذين كانوا قد أتوا إلى سوريا ولبنان، من مختلف البلاد الأوروبية، ولاسيما من فرنسا».

لقد سعى الفرنسيون، طوال مدة انتدابهم على سوريا ولبنان لبث هذه الأفكار والآراء بواسطة الصحافة والمدارس والوعظ.. واستطاعوا أن يؤثروا في بعض الناس، ويجعلوهم دعاة للإقليمية، وأعداء للقومية العربية.

ولكن.. العوامل التي ذكرتها آنفاً، لم تسيطر على الموقف سيطرة كلية ؛ لأنه كان هناك عوامل أخرى، تعمل عكس ذلك تماماً، عوامل عديدة تقتحم الحواجز، وتدفع إلى التعارف والتقارب. وتصارع عوامل التباعد.

إن تطور وسائط المواصلة يأتي في مقدمة هذه العوامل، لأن افتتاح طريق السيارات - عبر بادية الشام - لعب دوراً هاماً في هذا المضمار، إنه قرَّب المسافات بمقياس كبير جداً، كان السفر من دمشق إلى بغداد يستغرق نحو ثلاثة أسابيع. ولكن بعد افتتاح طريق السيارات نزلت هذه المدة بغتة إلى يومين، ثم إلى يوم، ثم إلى ثلث يوم.. وأما بعد تأسيس الخطوط الجوية. فقد أصبحت المدة نحو ساعتين - بل أقل من ساعتين.

ولا حاجة إلى البيان أن التطور الذي حدث بهذه الصورة في وسائل المواصلة أثَّر تأثيراً كبيراً في تقوية الفكرة القومية الشاملة، وإضعاف النزعات الإقليمية الضيقة، لأنه فسح مجالاً واسعاً للاتصالات الثقافية أيضاً.

هذا، ومما لا مجال للشك فيه، أن حركة الاصطياف في لبنان أيضاً لعبت دوراً هاماً في هذا المضمار: إنها صارت من «العوامل المضادة للتباعد» لأنها ساعدت على زيادة التعارف والتقارب بين منتسبي الدول العربية المختلفة...

يجب أن نلاحظ أن أوضاع لبنان الجغرافية وأحواله المناخية، جعلته مصيفاً طبيعياً للبلاد العربية، لاسيما بعد تطور وسائل الانتقال والسفر. صار يجتمع كل سنة في ربوع لبنان جماعات كبيرة من العراقيين والسوريين والفلسطينيين والمصريين، مع عائلاتهم، لقضاء فصل الصيف، أو للاستجمام بوجه عام. ومن الطبيعي أن هؤلاء صاروا يتعرفون إلى لبنان واللبنانيين ، كما يخالطون بعضهم البعض، على اختلاف الجوازات التي يحملونها والدول التي ينتسبون إليها. والتعارف الذي يتم بهذه الصورة

يؤدي - بطبيعة الحال - إلى التآلف ويحدث تأثيراً معاكساً لعوامل التباعد التي ذكرتها سابقاً.

هذا، ويجب أن أضيف إلى هذين العاملين «الشبه ماديين» العوامل المعنوية - كالصحافة والإذاعة والشعر والآداب والتمثيل - التي لا تقف عند الحدود السياسية، بل تتعدى تلك الحدود، وتنتشر بطبيعتها في مختلف البلاد الناطقة بالضاد.

وطبيعي، إن كل الأمور التي ذكرتها آنفاً تعمل على تكوين شعور مشترك عام يشمل مختلف الأقطار العربية من غير أن يكون هناك، من يقصد ذلك ويسعى إليه.

ولكن الأمر لم يبقَ محصوراً بحدود هذه العوامل الـ «غير قصدية»، بل انضم إليها بعض العوامل القصدية أيضاً.

قام جماعة من القوميين يؤلفون الأشعار والأناشيد، ويلقون الخطب والمحاضرات، وينشرون الكتب والمقالات.. لبث الفكرة القومية، وإيقاظ الشعور القومي، ولمحاربة النزعات الإقليمية مباشرة.

وفضلاً عن ذلك، أخذ القوميون يؤلفون الجمعيات ويؤسسون النوادي، لتوسيع نطاق هذه الأعمال، وزيادة تأثيرها في الناس.

كما أن بعض الحكومات أخذت على عاتقها مهمة نشر فكرة القومية العربية مباشرة، فأدخلت في مناهج مدارسها المختلفة الأبحاث التي تخدم الغاية المذكورة صراحة.

إن هذه الأعمال والمساعي، كانت في بادئ الأمر تنحصر داخل كل دولة على حدة، إلا أنها صارت بعدئذ تجمع رجالاً من دول مختلفة يعملون في جمعيات دائمة، أو مؤتمرات موقوتة.

وفي الأخير صارت الدول العربية نفسها تشترك في أمثال هذه الأعمال والمساعي.

وفي هذا الطور من القضية العربية، أخذت مصر تلعب دوراً هاماً جداً. ولذلك أرى الآن أن أترك - جانباً -البلاد العربية التي انفصلت عن السلطنة العثمانية في الحرب العالمية، لأنتقل إلى بحث ما حدث في مصر قبلاً.

* * *

-٤-

كانت مصر بقيت خارجة عن جميع التيارات السياسية التي ذكرتها قبلاً، حتى معاهدة لوزان تقريباً.

لأنها كانت انفصلت عن الدولة العثمانية انفصالاً فعلياً منذ مدة طويلة، وابتليت بمشاكل خاصة من جراء الاحتلال البريطاني منذ سنة ١٨٨٢. ولهذا السبب لم تلتفت مصر إلى ما كان يحدث في البلاد العثمانية بوجه عام، وفي البلاد العربية بوجه خاص، ولا نغالي إذا قلنا أنها كانت تجهل أحوال البلاد العربية ومشاكلها جهلاً يكاد يكون مطلقاً، ولهذا السبب ما كانت تتأثر بها، ولا تحاول التأثير فيها.

ومن الغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه مصر لا تبالي بما يحدث في البلاد العربية، كان جماعات من مثقفي العرب تتجه بقلوبها وبأنظارها نحو مصر، تنتظر منها أن تتزعم الحركة العربية، ورجال الدولة العثمانية كانوا

يعرفون هذا الاتجاه، فيسعون لعزل مصر عن سائر البلاد العربية بشتى الصور والأساليب، حتى أن الدول الغربية نفسها كانت تجد ترابطاً طبيعياً بين القضية المصرية وبين قضايا سائر البلاد العربية.

وللبرهنة على ما قلته آنفاً، أود أن أذكر بعض الوقائع، مستنداً إلى مذكرات ووثائق رسمية:

(أ) معلوم أن انكلترا عندما احتلت مصر، طلبت من الدولة العثمانية أن تشترك معها في هذا الاحتلال، لضمان استتباب الأمور بسرعة، والدول المعارضة لانكلترا أيضاً حبَّذت إرسال جنود عثمانية إلى مصر، لكي لا تنفرد انكلترا بهذا الاحتلال، ولكن على الرغم من كل ذلك، أحجمت الدولة العثمانية عن إرسال الجنود، وتركت انكلترا تنفرد بالاحتلال، وتتصرف بالأمور كما تشاء..

لماذا ؟ لم أعثر في الكتب العربية التي طالعتها على جواب عن هذا السؤال، كما أني لم أجد في الكتب الفرنجية التي اطّلعت عليها أيضاً ما يوضح عوامل الخطة التي سلكتها الدولة العثمانية في هذا المضمار.

ولكني وجدت في المذكرات التي نشرها الصدران الأعظمان سعيد باشا وكامل باشا - وكانا قد تناوبا الحكم خلال أزمة احتلال مصر - إشارات عديدة تكشف النقاب عن هذا اللغز الغريب :

يتبين من هذه المذكرات، أن الوزارة القائمة عندئذ، قررت تلبية طلب الدول في إرسال جيش عثماني إلى مصر، لتهدئة الأحوال، ووضعت الخطة اللازمة لنقل قسم من القوى المرابطة في الشام، على وجه الاستعجال.

والسلطان عبد الحميد وافق على ذلك في بادئ الأمر، ولكنه عدل صباح اليوم التالي، قائلاً:

«أخشى أن يؤدي ذلك إلى عواقب خطيرة، فإن الجنود الذين يذهبون إلى مصر قد يعجبون بها، وينجذبون إليها، ويتأثرون بها، وعندما يرجعون إلى بلادهم، لا يرتاحون إلينا..» وتؤكد مذكرات الصدرين الأعظمين، أن السلطان عبد الحميد، ظل متمسكاً بهذا الرأي ولم يتخلَ عنه بعد ذلك أيضاً.

ويظهر من ذلك بكل وضوح وجلاء أن الخوف من تأثير مصر، هو الذي كان حال دون إرسال الجنود العثمانية في تلك الأيام الحرجة من تاريخ مصر.

(ب) في الكتاب الرسمي الذي أصدره جمال باشا عن أعمال ديوان الحرب العرفي المتشكِّل في عاليه، صورة كتاب مرسل من قنصل فرنسا إلى سفيرها في الآستانة بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٣، يدل على مبلغ تخوف فرنسا من تأثير مصر في سوريا، إذ جاء في مقدمة الكتاب ما يلي:

«شاع منذ أيام أن البرنس عمر طوسون باشا المصري كُلِّف لأن يكون والياً في سوريا، ولكنه رد هذا التكليف، غير أن هناك إصراراً لأجل إقناعه على الموافقة - كما جاء فيه -» غير أن تعيين طوسون باشا على فرض تحققه سيكون ضربة مدهشة على نفوذنا في سوريا «- وجاء في آخر الكتاب -» إن تعيين هذا البرنس يكون مضراً بحقنا بقدر ما يكون مضراً تعيين رجل ألماني، بل أشد تأثيراً».

يلاحظ أن السياسي الفرنسي كان يعتبر ولاية أمير مصري على سوريا، أشد ضرراً لمنافع فرنسا من ولاية رجل ألماني عليها!!!

(ج) في الكتاب الرسمي نفسه، يوجد بعض التفاصيل عن التهم الموجهة إلى شكري العسلي :

«أنه ألقى خطاباً في مصر، في ميدان إبراهيم باشا. وأثناء خطابه أشار إلى تمثال إبراهيم باشا فقال: إلى أين يشير هذا التمثال؟ واستمر في خطابه قائلاً : إن مصر والشام أختان، بينهما رابطة الدين واللسان والعنصرية، وهذا التمثال يشير بيده إلى البلاد الشامية».

هذا، ومما يجب ذكره في هذا الصدد، أن الديوان العرفي حكم على هذا الرجل بالإعدام ، وتم تنفيذ الحكم في حقه شنقاً في دمشق الشام.

أظن أن هذه الأمثلة تكفي للبرهنة على ما قلته آنفاً.

ومع هذا أرى أن أُشير إلى واقعة أخرى أيضاً :

عندما اعتزم خديوي مصر عباس حلمي باشا السفر إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، ساور السلطان وحاشيته قلق شديد حملهم على اتخاذ تدابير عديدة ، وعلى استخدام جيش من الجواسيس ينتشرون في البلاد التي سيزورها الخديوي... وذلك خوفاً من قيام حركات تؤدي إلى انتقال الخلافة من الآستانة إلى القاهرة! .

هذا وعندما كانت تجري الحوادث التي ذكرتها آنفاً .. عندما كانت تتجه أنظار جماعات المثقفين في الولايات العربية العثمانية نحو مصر اتجاهاً طبيعياً .. وعندما كان يلاحظ هذا الاتجاه كثيرون من رجال السياسة - عثمانيين وغير عثمانيين - كانت مصر غير مكترثة بكل ذلك، غير منتبهة إليها، لأنها كانت منشغلة بمشاكلها الخاصة، معتكفة على نفسها .

ونفسها هذه، كانت تتنازعها تيارات متنوعة، متضاربة، جماعة تقول: إن مصر فرعونية، وأخرى تقول: بل إسلامية ، وأخرى تقول: لا هذا ولا ذاك، إنما هي مصرية !! وجماعة تمد بصرها إلى خارج حدود مصر وتتوجه نحو الآستانة، زاعمةً أن مصر لا تزال عثمانية، وأنها ستتخلص من الاحتلال البريطاني بفضل العثمانيين، وجماعة أخرى تتكلم عن الرابطة الإسلامية العامة، وأخرى تكتب وتخطب في الرابطة الشرقية الشاملة - ولكن - بين هذه الجماعات العديدة المتنوعة، لا تقوم جماعات تلفت الأنظار إلى الرابطة العربية، لأن العالم العربي - في نظر ساسة مصر ومفكريها - كان مندمجاً عندئذ، في السلطنة العثمانية، وفي العالم الإسلامي، وفي دنيا الشرق، لا يتميز فيها بكيان خاص.

ولا نغالي إذا قلنا لذلك: عندما قامت الثورة العربية في الحجاز، ما كانت مصر تعرف شيئاً يذكر عن القضية العربية، إنها كانت تجهل المشاكل التي كانت قائمة في الولايات العربية، والمفاوضات التي كانت جرت لمعالجة هذه المشاكل، ولذلك توهمت مصر أن الثورة التي قامت بغتة، إن هي إلا وليدة مطامع شخصية، ونتيجة دسائس إنكليزية، وتحت تأثير هذا الوهم استنكرت مصر الثورة العربية ومقتتها ،وصارت تكره العرب والعروبة من أجلها.

ولكن للطبيعة أحكاماً. فكان من الطبيعي أن تنجلي الحقائق، بمرور الزمن، الواحدة بعد الأخرى، وأن تجد مصر نفسها، بعد معاهدة لوزان، مجاورة لعدة دول ووحدات سياسية انفصلت عن السلطة العثمانية المنقرضة بصورة نهائية. وكان من الطبيعي أن تتأسس بين مصر وبين تلك الوحدات

السياسية علاقات قنصلية فَسياسية، واقتصادية وثقافية، وأن تتعرف مصر إلى حقيقة تلك البلاد شيئاً فشيئاً، وأن تنتبه إلى روابط التاريخ واللغة والتقاليد التي تربطها بها.. وكان من الطبيعي أن تشعر مصر في آخر الأمر، بأن هناك رابطة تسترعي النظر والاهتمام أكثر من الرابطة الإسلامية العامة والرابطة الشرقية الشاملة هي رابطة القومية العربية.

أخذت مصر تهتم بالقضايا العربية خلال الربع الثاني من هذا القرن، ولاسيما بعد منتصف العقد الثالث منه.

إن اشتراك مصر في حركات القومية العربية، فتح في «تاريخ نشوء الفكرة القومية عند العرب» فصلاً جديداً، يدل على طور جديد.

في هذا الطور، لم تبقَ الفكرة القومية موضوع بحث واهتمام في المحافل والجمعيات الخاصة بكل دولة من الدول العربية على حدة، بل إنها صارت موضع بحث واهتمام في جمعيات وجماعات تتألف من منتسبي جميع الدول العربية أيضاً.

والمؤتمرات الطبية العربية التي صارت تنعقد تقريباً كل سنة منذ سنة ١٩٣٧، والاتحاد العام للجمعيات الطبية العربية الذي تأسس سنة ١٩٤١، ومؤتمر المحامين العرب الذي انعقد سنة ١٩٤٤، ومؤتمر المهندسين العرب الذي اجتمع لأول مرة سنة ١٩٤٥. كان من أهم مظاهر هذا التيار الجديد.

والمؤتمرات العربية العامة لم تبقَ منحصرة بشؤون العلم والثقافة وحدها، بل صارت تتناول الأمور السياسية أيضاً: المؤتمر الفلسطيني العربي العام الذي انعقد في بلودان سنة ١٩٣٧، جمع وفوداً وأعضاء من جميع الأقطار العربية، للنظر في التدابير التي يجب اتخاذها لمكافحة الصهيونية.

هذا، وبعد هذه المؤتمرات الشعبية - صارت الحكومات أيضاً تشعر بضرورة التعاون والتعاضد لصيانة المصالح العربية المشتركة، ومؤتمر المائدة المستديرة الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٩ لمناقشة قضايا فلسطين كان أول مظهر من مظاهر هذا الشعور. لأن المؤتمر المذكور جمع ممثلين رسميين عن جميع الدول العربية.

ولا حاجة إلى القول، أن جميع هذه الاجتماعات والتشكيلات الشعبية والحكومية المتفرقة والمؤقتة، كان من الطبيعي أن تمهد السبل إلى منظمة دائمة، تتولى شؤون الدول العربية.

إن قضايا فلسطين من جهة، والأزمات الشديدة التي اجتاحت العالم العربي خلال الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى.. جعلت الحكومات العربية تشعر شعوراً قوياً بضرورة توثيق التعاون فيما بينها.

ولا حاجة إلى القول أن هذا الشعور القوي هو الذي ساعد على تكوين جامعة الدول العربية.

ومن المعلوم أن الجامعة المذكورة تكوَّنت بصورة رسمية سنة ١٩٤٥، بعد مشاورات ومذكرات جرت سنة ١٩٤٤.

ولكن ... ماذا حدث بعد ذلك؟

ماذا عملت جامعة الدول العربية؟

ماذا كان تأثيرها في نشوء فكرة القومية العربية ؟

هذه أسئلة هامة ولا شك، غير أني لن أحاول الإجابة عليها هنا.

ذلك لأن المدة التي مضت على تأسيس جامعة الدول العربية لم تبلغ بعد ثلاث سنوات. وهذه المدة غير كافية لإخراج القضايا عن نطاق الشؤون السياسية، وإدخالها في ساحة الأبحاث التاريخية.

وأنا مضطر هنا، للتوقف عند الحدود التي تنتهي فيها مهمة الأبحاث التاريخية.. لأني أُلقي هذه المحاضرات تحت رعاية كلية جامعية، فيترتب عليَّ أن أتجنَّب الخوص في غمار القضايا السياسية.

ولذلك أختم أبحاثي هذه بذكر تأسيس جامعة الدول العربية دون أن أتكلم عن أعمالها.

ومع هذا، أرى أن أقول كلمة مؤجزة عما أعتقده في مستقبل «فكرة القومية العربية»، قبل أن أختم هذه السلسة من المحاضرات.



مستقبل فكرة القومية العربية

أظن أن كل من يقارن بين أحوال العالم العربي الآن، وبين الأطوار التي مرت عليها البلاد التي استعرضنا سير نشوء الفكرة القومية فيها قبلاً... يضطر إلى التسليم بأن فكرة «**القومية العربية**» لم يتم بعد نشوؤها: إنها لا تزال في حالة نزاع وكفاح مع النزعات الإقليمية، إنها لم تتغلب على تلك النزعات، ولكنها لما تستلم إليها، ولما تكف عن مصارعتها ومكافحتها.

ماذا سيكون نتيجة الصراع القائم الآن بين فكرة القومية العربية وبين النزعات الإقليمية الخاصة ؟

إن ما لا حظناه من الاتجاه الثابت في تاريخ نشوء فكرة القوميات، عند الأمم الغربية والشرقية التي تكلمت عنها في المحاضرات الخمس الماضية، لا يترك مجالاً للشك في الجواب الصحيح الذي يلائم هذا السؤال:

إن الغلبة ستكون - في آخر الأمر - لفكرة القومية العربية العامة.

* * *

هناك أمران هامان يجب أن لا يغربا عن البال في هذا المضمار :

أولاً: - يجب أن نلاحظ أن الفكرة القومية تتمتع بقوة ذاتية وأنها تدفع إلى العمل والكفاح عندما تدخل العقول وتستولي على النفوس، أنها

من «الفكر القوانية» IDEES - FORCES التي تحرك الهمم وتسيّر الجماهير، وتدفع الناس إلى البذل والتضحية عند الاقتضاء.

ثانياً: - يجب أن نلاحظ أن العصر الذي نعيش فيه أصبح خليقاً بالتسمية بعصر التكتلات الكبيرة، لأن التطورات التي حدثت في الحياة الاقتصادية وفي الوسائل الحربية، صارت تحمل الأمم على التكتل، ولو كانت متباينة اللغة والتاريخ والتقاليد... فليس من المعقول أن تترك شعوب الأمة الواحدة منفصلة ومتفرقة.

ولذلك قلت: إن الغلبة ستكون في آخر الأمر لفكرة القومية العربية العامة.

وأما النزعات الإقليمية الخاصة، فيبدو لي بأنها ستتلاشى فتزول في بعض البلاد، ولكنها ستبقى في بعض البلاد الأخرى بعد أن تتطور تطوراً أساسياً تصبح معه خاضعة لفكرة القومية العربية العامة، ومقتصرة على الشؤون الخاصة التي لا تتنافى مع مستلزمات القومية العربية الأصلية.

واليد العليا ستكون للقومية العربية العامة على كل حال.

هذا ما نستطيع أن نجزم به على ضوء أبحاث تاريخ القوميات العام.



المحتوى

الصفحة

مختارات من أعمال
ساطع الحصري

اختيار: خلود أحمد رسول

٢٠٢٠م